أردتهـــا أقاصـــيص من صميم الحياة..

أردتها لتكون مرآة يصـــــافحنا فيهـــــا واقعنــــا من غـــير رتوش!!

وأنـــــا أؤمـــــل أن تعـــــالج بأمثالهـــــا بداواتنا الخاطئة!!

سباعي



* * *

خالتي كدرجان

لم يكن اسمها "كدرجان"، ولكنه لقب سترثي لها إذا عرفت كيف غلب عليها وأصبحت لا تُنادى إلاَّ به.

وإذا كان سنها قد زاد على الخمسين في نظر بعض جاراتها فإن بعضهن يؤكدن أنها أكبر سناً من عم عيدروس بائع الزرنباك المتجول، ويؤكد هذا عيدروس نفسه فيقول: "إنها كانت تلبس "الغتفة" [1] !! يوم كنت طفلاً اقرأ في كتاب المغربي بجوار بيت أمها". فهي في نظره لا تقل عن سن الستين إلاَّ بعامين أو ثلاثة.

أما خالتي كدرجان فلا تُعنى بكل هذا.. إن حساب السنوات في نظرها دوشة.. إنها تذكر أنها تعرف سنة السيل الكبير وهي صغيرة، وأنها شافت الفيل في مكة وهي صغيرة، وأنها حضرت زينة الشريف وهي صغيرة، فإذا قيل لها إن بين هذه

---

[1] () - غدفه، هي بالدال والعامة تنطقها بالتاء وتقول: أغدفت المرأة قناعها أي أرسلته على وجهها، (صحاح الجوهري)، مادة أغدف. الناشر.

الحوادث سنوات طويلة صكَّت وجهها وهي تقول: "وصامني.. أنا هادي الدوشة تفلق رأسا"، إنها في نظر نفسها لم تتجاوز الثلاثين إلاَّ من سنوات نسيتِ عددها.. تقول هذا في تصميم قاطع وتزيد فتؤكِّده لك بهندامها وهي تخطر بين فسحة الديوان الذي تسكنه وباب الحنية الصغيرة التي جعلت منها مطبخاً يطرقع القبقاب في رجليها، وهي تتهادى في دلال الفتاة ذات العشرين.

كنا يومذاك صِبية نلعب الغميمة بين ملاوي زقاقنا، وكنت شخصياً صاحب دل عليها فلا يحلو لي أن أختبىء -إذا احتدم اللعب- إلاَّ في بيتها، وكانت لفرط حنوها إذا رأتني هارعاً إليها وأنا ألهث ظنتني خائفاً ممن يطاردني ليضربني، فتشير لي بيدها إلى الكنبة التي تتصدر الديوان لأختبىء تحتها خلف السجاف، فإذا فرغ روعي تسللت على أطراف أصابعي، فكانت إذا رأتني تقف دوني لتمنعني من الخروج: "كم مرة يا واد.. قلت لك لا تخلي البزورة يتلمّوا عليك.. هادول أشقياء وأنت صغير"، وهي لسذاجتها لا تدري أنها طبيعة اللعبة وأن المغموم يجب أن يهتدي إلى مخابىء المُنْدَسّين أو أحدهم ليصبح فيه "الدست".

كنت ألاحظ أن خالتي كدرجان تُعنى كثيراً بمكحلتها، وهي تحتفظ بجانب المكحلة بعلبة صغيرة أراها كثيراً ما تمد يدها إليها، لتتناول منها بأصبعها شيئاً تدعكه بين يديها، ثم تغشى به وجهها، فكنت لا أعلق شيئاً على ما تفعل.

وكنت كثيراً ما أراها تجلس إلى "نصبة" الشاهي وقد فرغت منه، فتزيح التبسي والفناجيل وتركز في مكانهم فوق كرسي النصبة مرآة، ثم تأخذ بيدها مقصاً تمر به على شعر رأسها فتلتقط به

شـعرة من هنـا وأخـرى من هنـاك بيضـاء ناصـعة، وكانت لفـرط اسـتخفافها بي كطفـل ترجـوني أن أسـاعدها بـالنظر في شـعرها؛ فـإذا لمحت شـعرة بيضاء دفعتُ المقص لالتقاطها، فكنت أتحـدث إلى أمي في بعض الأمسـيات الـتي تجتمـع فيهـا مـع الجارات، فكن يتضاحكن ويتغـامزن، وربمـا تـأوَّهت إحـــداهن في مـــرارة وقـــالت إنهـــا مســـكينة؛ فيمصمصـــن شـــفاههن ويبادلنهـــا القـــول إنهـــا مسكينة.

كنت لا أفهم وجهـاً لهـذه المسـكنة وهـذا التوجُّع الـذي يُبدينـه تعليقـاً على خـالتي كـدرجان، وكـان يُخيَّل إليَّ أنهـا أكـثر رقـة وأحلى معاملـة من كـل جاراتنـا بمـا فيهن أمي، وكنت ألاحـظ من عنايتهـا بنفسـها وبالنـاس مـا لا أجـد لـه مـثيلاً بين كـل الجارات اللاتي أغشى منازلهن.. كان مسكنها على صـغره نظيفـاً بشـكل يسـترعي الانتبـاه، وكـانت مساند الكنبة التي تسـتقبل عليهـا ضـيوفها محلاة بالترتر البراق، ومخداتها في وسط الكنبة مطـرزة بأشـجار يلمـع فيهـا اللازوردي والأصـفر، وفي حواشيها سطور كان يروقـني شـكلها؛ وإن كنت لا أحسن إلاَّ قراءة كلمة "آه" بين مقاطعها.

كـانت تخـدم بيتهـا وهي في أحلى زينتهـا تلبس الكرتـة من قمـاش رقيـق شـفاف، وتعقـد شـعرها بمشـط تلمـع فيـه الفصـوص، أمـا الشبشـب الـذي تتهادى به في خيلاء؛ فكأنه لم يلبس في رجلها إلاَّ من يومه.

وكنت ألاحظها وهي مغمورة في خدمتها رشيقة أكثر مما تعودت في بيتنا وفي جميع بيوت الجيران حولنا، فهي لا تتناول الأشياء إلاَّ بأطراف أصابعها، فكنت كلما نقلت هذا إلى أمي وهي في مجمع من

جاراتهـا لا يروعـني إلاَّ تـوجعهن لخـالتي كـدرجان ومصمصـة شـفاههن وهن يــردِّدن: "مسـكينة يــا ولدي.. قول يا لطيف". ولا أذكر في ذلـك السـن -الغرير- أنـه كـان يعنيـني من أمـر خـالتي كـدرجان شيء كما يعنيني أن أوفِّق بين هذه الحياة الناعمـة الرشيقة التي كانت تحياها خالتي كـدرجان وتتـألق في عيني كطفل، وبين هذا التوجـع الـذي ألاحظـه على أمي وجاراتها كلما مرَّ بينهن ذكراها.

ومرَّت السنون طويلة مملـة تُـوفيت أثناءهـا أمي ولحقت بهـا أكـثر جاراتهـا، ووجـدتني أشـب عن الطوق فـأمنع نفسـي عن ديـوان خـالتي كـدرجان مسرح لعـبي أيـام الطفولـة فلم أعـد أسـمع عنهـا شيئاً، ثم بلغني أنها أصيبت في بعض أيامهـا بلوثـة في عقلها فانتقلت إلى بيت بعض قريباتها؛ وأنهـا ما لبثت أن تُوفيت بمرضـها. انتهى خبرهـا إليَّ من عجوز كانت البقية الباقية من جارات أمي امتد بها العمر إلى عهد متأخر، فاستحلفتها لتخـبرني قصـة "خالتي كدرجان" التي كانوا يأسون لها ويتوجعـون لحالهـا رغم الحيـاة الناعمـة الـتي كـانت تحياهـا، ففهمت الكثير الذي كنت أعجز عن تعليله.

شبَّت خالتي "كـدرجان" في كنـف والـدها هيفـاء في جمــال مفــرط، وكــانت تعيش وإيَّاه في هــذا البيت الكبـير وحـدهما، لأنهـا فقـدت والـدتها وهي في سن الرضاعة، ثم فقدت أختها وهي يـافع ولم يبقَ من عائلتها غير أبيها الذي كـانت تشـرف على سائر خدماته؛ وكان بدوره يُدلِّلها ويؤمِّن لها جميــع رغباتها.

كان الوالد شيخاً تقدمت به السن، وكان ثريـاً من ذوي الأملاك، وكان يسكن وإياها في هـذا القصـر، وهو من بعض أملاكه عندما كانت يافعـاً يتـألق مـاء

الشباب في محياها الفاتن.

واشتد الطلب على يـدها فلم يوافـق الوالـد على زواجها بدعوى أنها (وحـدة وحيلـة)، وأنهـا (تشـيل كبرتــه)، ولكنَّ العــالمين ببــواطن الأمــور كــانوا يعرفون أنه يخشى أن تنتقل أمواله إلى يد أجنبية.

عاشت الفتاة في بيت أبيها منطوية على خدمته، ولم يطل ذلـك كثـيراً فقـد وافـاه الأجـل وهي لمَّا تزل في ميعة صباها، فما كادت تنتهي أيام المــأتم حتى تقدم ليدها ابن عمهـا وكـان يحتـل بعـد أبيهـا مقام الوصـي عليهـا، ولكنهـا أبت قبـول يـده فهـو والد لأتراب في مثـل سـنها؛ ولمـا أصـرَّ ثبتت عنـد رفضها في عناد.

وجازاها بعناد مثله إذ رفض باعتباره وصياً عليهــا كل يد تتقـدم لخطبتهـا.. كـان يخـترع لكـل خطيب عيبــاً يســتند عليــه في الــرفض حــتى اســتطاع أن يحكم عليها لتعيش عانساً في بيتها.

لقــد كــان رزقهــا مكفــولاً من حصــتها في أملاك أبيها، ولكنها مـع هـذا عاشـت فارغـة تتطلـع ككـل فتاة إلى من يملأ فؤادها وتحلم بالفـارس الجميـل حتى في أوقات يقظتها.

ولمــا طــال انتظارهــا عبثــاً اتســع القصــر الــذي تسكنه على وحدتها القاسية فانتقلت ببعض أثاثهــا إلى الديوان في أسفل طبقة منه وعرضت الباقي للإيجار وعاشت تتجرَّع غصَّة وحدتها.

ومضت بهــا الأيــام قبــل أن تســتيقظ ذات صــباح على من يطرق الباب.. كانوا ضيوفاً من إندونيســيا قدموا إلى الحج من عـامهم ذلـك.. رجلاً وامـرأتين يحملــون إليهــا رســالة من بعض أقربــاء أبيهــا فاستقبلتهم في لثام رقيق على عـادة نسـاء مكـة في اســتقبال الحجــاج اعتمــاداً على الثقــة فيهم

كحجـاج، وبعـد أن تنـاولوا تحيتهم قهـوة أو شـاياً، شعرت أن عين الشاب تسـارقها النظـر في لهفـة فلم تُعلِّق كثيراً على هذا؛ رغم أنها أنسـت ارتياحـاً واستطاعت أن تغافله لتنام عدة ثوانٍ بين أهدابه.

ولم تمض إلاّ سـاعات بعـد وداع الضـيوف حـتى طرق الباب لتستقبل في هذه المرة شيخة الحجاج جاءت لتنقـل إليهـا رغبـة ضـيوفها في طلب يـدها لابنهم الشاب الذي كان يصحبهم في زيارتها قبـل ساعات.

وصـادف الحـديث هـوى في نفس فتاتنـا فاتسـع وتشعبت وجوهه وكان لا بـد أن يتـداعى إلى قصـة ابن العم الذي يمثِّل الوصاية عليها ويحـاول بشـتى الوسائل ألاَّ يتم لها قِران.

ولكن الشـيخة كـانت شـيخة في صـرامتها فقـد أهابت بها وهي تودعها "شوفي يا بنتي الولـد بعـد الحج يسافر بلده مع أمه وأخته اللي شفتيهم يأخـذ رضا أبوه ويأخذ اللي فيـه النصـيب علشـان المهـر واللي منه ويجيكي راجـع.. أبـوه يبغـاه يـدرس هنـا ويبغاه يكمل دينه ويربط رجله. لا تقولي ولد عمـك يرضى ما يرضى.. أنت مو صغيرة.. أخطفي رجلـك إنتي وهو بعدين وعلى بيت القاضي يعقـد لكم مـا دام إنتي راضية ومنت قاصرة ها..؟ اتفقنا.

- اللي تشوفيه.

- يعني خلاص؟؟..

- زي ما تقولي!! أصله انتي زي أمي!"

ومضـــى موســـم الحج وأقلعت آخـــر بـــاخرة للإندونيســـيين عائـــدة بهم إلى بلادهم فعاشـــت تحصي شهور العام الجديـد في أعصـاب متـوترة لا تعرف القرار.. إنها فرصة العمر.. سـوف لا أتركهـا تضيع من يدي.. لا قيمة للصداق عندي قلَّ أو كَثُر..

مــا أعظم "ســتي الشــيخة ومــا أعظم أفكارهــا.. سوف أصـحبه إلى بيت القاضـي وأقـرر موافقـتي في أول يوم يطـرق فيـه بـابي.. مـا أحلى أن أجـد إنساناً يملأ فراغ بيتي بعد طول هذه السـنين.. لـك الرحمـة يـا أبي فقـد قيـدتني في حياتـك لأفكـارك الخاصة، وأسـلمتني بعـدك لهـذه الوحـدة المريـرة، وأبحت للنـــدل ابن أخيـــك أن يقيـــدني لمنفعتـــه الشخصية، ويضـيف إلى السلسـلة أقفـالاً جديـدة.. ســأحطم هــذه السلســلة مهمــا كــانت متانتهــا.. فتعال.. تعال يا رفيق روحي.. ليتك تسمعني".

ولكنــه لم يســمعها فيمــا يبــدو وقــد أهلت أول باخرة تقل الإندونيسيين إلى جدة في العام الجديد ثم تقاطرت بعدها البواخر دون أن تسمع عنه خبراً وانتهى الموسم وتلاه آخر وآخر وفتاتنا تنتظر دون أن تفقد الأمل.

وحاولت أن تعرف رأي "الشيخة" فيما سبب هــذا الغيـــاب ولكن أين هي "الشـــيخة"؟. لقـــد كـــانت زيارتها بيضـة الـديك لم تتكـرر بعـدها، وقـد فاتهـا لفـرط دهشـتها يـوم أن زارتهـا أن تعـرف اسـمها وعنوان سكناها؛ ومع هذا فهي لم تفقد الأمل!!

وظلت فتاتنـــا تعيش على هـــذا الأمـــل ســـنوات وســـنوات تســـلّلت الكهولـــة أثناءهـــا إلى محيّاهـــا الوسيم، وظهرت آثارها فيما تغضَّــن من وجنتيهــا، ولكنهـا تـأبى رغم ذلـك أن تعـترف بمـا تقـدَّم من سـنها. ظللت تعيش في أحلام اليقظـة تترقبـه في كـل حركـة يخفـق بهـا الزقـاق الطويـل، وتصـيخ بسمعها لكل طارق ولو على أبواب جيرانها خشـية أن يكون قد ضل سبيله إلى بابها؛ وهي لهذا دائمة الزينـة تتنـاول أعمالهـا في خدمـة الـبيت بـأطراف أصابعها في رشاقة العروس المجلوة من ليلتها.

وتضحك جاراتها لما تتكلَّف من الأناقة في غير مناسبتها، وبما لا يليق من تقدم سنها.. فأما العارفات منهن بدقائق النفس كنتيجة للتجارب، فيرثين لها ويُوقعن باللوم على أبيها الذي هيَّأها لمثل هذا الهوس؛ وأما البدائيات فحسبهن ما يجدن في سيرتها من مفارقات تغري بالسخرية منها.. وهن لهذا يطلقن عليها "خالتي كدرجان".

صبي السلتاني



****

والسلتاني "نفع الله" شوّاء كان معروفاً بطريقته الخاصة في شيِّ اللحم في أكثر مدن الحجاز، يوم كان اللحم وحده عمدة الطعام؛ وكان

ســعره مشــوياً في دكــان الســلتاني لا يزيــد عن قرشين للرطل.

لا أدري لِمَ سُمّي هذا النـوع من الشـيِّ (سـلات)، إلاَّ إن كـان اشـتقاقاً من اللغـة، ففي اللغـة سـلت الشـيء قطعـهُ. وكـان السـلتاني في بلادنـا يقطّع اللحم بصــورة فنيــة بعــد تجريــده من العظم إلى شرائح خفيفة، ثم ينصب في دكانه (مِنَصَّـة) عاليـة تتوسط الدكان، يعتلي فوقها على كرسـيه ويجعـل أمامه كانون الشواء، وهو كانون واسع يعلوه حجــر رقيق الصفحة يبسـط عليـه شـرائح اللحم ويتحلّـق الزبائن حوله تحت المنصة؛ "هات من فضلك نصف رطل.. وقمِّر معاه العيش".

وهـو لا يعطيـك نصـيبك من الشـواء إلاَّ منجمـاً.. ملقاطـــه يتخلّل شـــرائح اللحم ليلتقـــط الناضـــج فيجعله في طبقـك، وهـو لا يزيـد بحـال عن قطـع معــدودة خمس أو ســت تتلمَّظ بهــا لبينمــا ينضــج الباقي؛ فيوافيك ساخناً طبقاً بعد طبق.

وأكبر ظـني أن أسـتاذنا القنـديل أدرك آخـر هـذا العهد، وكان أحد زبائن (السـلات) يـوم كـان يعيش في مكـة عـاملاً في رئاسـة تحريـر صـوت الحجـاز وكـان مغرمـاً بـدكاكين الشـواء من لحـوم وقلـوب وأكباد، وكان معروفاً لفوالة باب العمـرة وأصـحاب المطبق؛ والمعصوب فيها.

وكان من أشهر دكـاكين السـلات في مكـة دكـان عم خليل السلتاني بالقرب من بـاب العمـرة، وهـو رجل طويل، عريض ما بين المنكبين، تزدحم بطنــه البــارزة بين الكــانون والكرســي فــوق المنصــة؛ فينثني ضاغطاً عليها ليلتقط الناضـج من الشـرائح في أقصى طـرف من حجـر الشـواء. وكـان زبائنـه يســتمرئون الطعــام عنــده لفنــه وفــرط عنايتــه

بتشريح قطع اللحم وشيِّها، وهو إلى هذا خفيف الظل حاضر النكتة يرسلها بداهة، فيضج الدكان بضحك المزدحمين من زبائنه، وتصافح أذنه أختها من أحد الطاعمين؛ فيرسلها قهقهة عالية تهتز لها مراقية وتسمع قرقرتها في بطنه كأنها قرع الإناء من النحاس.

وصاحبنا خليل السلتاني كان معروفاً إلى جانب فنه في الشواء وبراعته في النكتة بحرصه على الهللة لا يشتري بها الإبرة إلاَّ إذا عزَّ على أمه أن تستعيرها من الجيران أو ضاق الجيران بها.. واضطروها لتترك خليلاً يلبس قميصه بادي الشقوق.. وعندها يجد خليل أن لا مناص من الهللة يقدمها قرباناً على مذبح دموع أمه الغالية.

ويبدو حرص خليل وشحه البالغ واضحاً في طريقته وهو يختار صبيَّه في الدكان.

كان من مميزات صبيه (أبو طافش)، أنه أمين على دكان عمه بشكل نادر، ولكن الخبثاء حول خليل لا يعلِّلون أمانة صبيه بما يعرف من خلال الأمناء، فهم يقولون إن فهمه لا يُحيط بالحيل التي يجب أن يمتاز بها المختلس، فهو إذا صفا ذهنه مرة واستطاع أن يعي ما فوق العشرة في حساب الهلل عجز في مرة أخرى أن يحصي أكثر من الخمسة، أو اضطر أن يقول لك إنها خمسة وثلاثة وعليك معرفة مجموعها، وكل هذه الذهنية لا تجرؤ على اختلاس الحرام لأنها ستلتاث عند أول ملاحظة تواجهها؛ فمن الخير أن يكون: "الباب اللي يجيك منه الريح.. سدّوا واستريح".

كان خليل يعرف هذا في صبيِّه ولهذا عاش مطمئناً إليه راضياً به، ولِمَ لا يطمئن ويرضى وهو إلى جانب هذا قنوع حسبه من عمه أن يملأ بطنه

من فضـلات مـا يُطعم النـاس، دون أن يطمـع في أجر لخدمته على غرار ما يفعل غيره من الصبيان.

وهو في خدمته (ببطنه) غير مغبـون لأن كفاءتـه في الخدمة لا تتخطَّى أبعـد من هـذا المسـتوى في سوق الصبيان.

- "اجرِ يا (أبو طافش) اشـترِ ليمونـة للزبـون من عمــك سـعيد من قــريب".. نعم يشــتريها من عم سـعيد.. ولكن عم سـعيد لا يوجـد في الـدكان هـل يشـتريها من غـير عم سـعيد؟ هنـا أكـثر من بـائع ليمون.. ولكنه لا يحب عصيان عمـه.. فلينتظـر عم سعيد.. لينتظـره سـاعة أو سـاعتين فطاعـة الأمـر خـير سـلوك الأدب.. ربمـا قلـق الزبـون ولكن مـا علاقته بهـذا مـا دام عمـه لم يـأمر بشـرائها إلاَّ من عم سعيد.

خـذ يـا (أبـو طـافش) أعـطِ الطبـق للزبـون في الركن على يمينـك.. ولكن (أبـو طـافش) لا يعـرف يمينه من شماله فيعود بالطبق.. فين يا عمي..!؟.

- يا واد شوف الراجل هناك أبو إحرام أصفر..

ولكن (أبو طافش) من أين له أن يعـرف الأصـفر والأخضـر فلا حيلـة في الأمـر إلا أن يقـف الزبـون ليصيح به: أنا هنا يا واد.

ويرسله عمه بعد انتهائه من خدمة الزبـائن -"خُـذ يا أبو طافش" (الزبدية) اشترِ فيها ربـع أقَّة سـمن للـبيت. فيمشــي إلى السـمان ويـزن لـه السـمن ويفرغه في الزبدية فتسـتوعبه الزبديـة إلاَّ شـطراً ضئيلاً بقي في كفة المـيزان.. وهنـا يتجلَّى الـذكاء فقد نظر فإذا في قاعدة الزبدية قاع مجوَّف يسـع بقية السمن وقبل أن يطول التفكير قلب الزبديـة ليتلقى بقيــة الســمن في قاعهــا المجــوف فــإذا السمن ملء الزبدية يسبقه إلى الأرض.

فوقف مشدوهاً يتأمل غرابة ما حدث، وتداعت معاني الغرابة في رأسه فرأى أن يتعمق.. فقلب الزبدية ليتأمل جوفها فما راعه إلاَّ السمن يسبقه من قاعها المجوَّف إلى الأرض.

وراعه أكثر ضحكات المستهزئين حوله فاضطرب عليه الأمر.. حاول أن يفهم لِمَ كان للزبدية جوفان؟ وهل من حرج في استعمالهما معاً؟.. وإذا كان فأي معنى لهزء الناس وضحكهم.. اضطرب عليه الأمر فتوترت أعصابه فلم يملك إلاَّ أن يقذف بالزبدية إلى الضاحكين ويعود إلى الدكان ليستوفي مكتوبه فيه.

وأعطاه عمه قطعة استامبولي ذات القرش ليشتري له تنباك كيزرون -"شوف يا واد دكان باصلوح عنده كيزرون زي الكهرم.. ترى لا تجيب تنباك مسود".

ويجري أبو طافش إلى باصلوح الحضرمي فلا يجد عنده الكيزرون إلاَّ المسود فيحتار في الأمر.. ولا تطول حيرته كثيراً فقد سمع باصلوح يحدث أحد الزبائن بأن الكيزرون لم يصل من جدة وفهم من ثنايا الحديث.. ولا أدري كيف استطاع أن يفهم -أن في جدة يباع الكيزرون مثل الكهرم في أكثر الدكاكين فقاده العزم في غير تردد إلى طريق جدة ليثبت لعمه بطولته في الموقف.

انتظر العم خليل أن يعود أبو طافش بالكيزرون وطال انتظاره ثم طال، فقام يتعقبه عند دكان باصلوح فلم يجد عنده ما يشفيه فذهبت به الظنون عشرات المذاهب إلاَّ أن يسوق الذكاء المفرط أبا طافش إلى جدة في شراء الكيزرون.

ومضت يومان عانى العم خليل في دكانه من خدمة الزبائن عنتاً لا يطاق وأشرق اليوم الثالث

فإذا أبو طافش يشرق بإشراقته على بـاب الـدكان وقد تأبط لفة التنباك.

- فين كنت يـا (أبــو طــافش)؟ فلم يملــك أبــو طافش إلاَّ أن تهالـك على نفسـه في إعيـاء شـديد وراح يروي لعمه قصة التنباك الكيزرون في ألفاظ لا رابط بينها استطاع عمـه بمـا تعـوَّد أن يفهم من لهجته الخاصة أن ذكاءه الخارق ساقه إلى جدة في سبيل الكيزرون.

لم يدهش عمه كثيراً لما حدث فقـد تعـوَّد مباذلـه الشاذة وأطواره الغريبة المتطرفة ورأى من الخير أن ينسى ما حدث إبقاءً على خدمته المجانية.

ومضت الأيام تتوالى بعدها الأسـابيع حـتى أقبـل العم خليل ذات صباح إلى دكانه الذي تعوَّد أن يجده مفتوحاً مكنوساً، فإذا الباب مقفل وإذا أبو طافش مسجَّى على كرسيه الذي تعود أن ينام فوقـه عنـد الباب جثة فارقتها الروح.

واجتمع الناس على النبأ وتطوع بعضـهم فنقلـوه وكرســيَّه إلى المستشــفى حيث أعلنهم الطــبيب موته بالسكتة القلبية.

إلى هنا.. كان الأمـر عاديـاً لا يزيـد في مجموعـه عن حيـاة شـخص عـاش كمـا يعيش كـل غـبي مـر بالأرض ثم انتهى به أجلـه إلى حيث تنتهي الآجـال بأغبياء الناس وأذكيائهم على حد سواء.

ولكن ما كشـفه المـوت من فضـائح أبي طـافش كان من أروع ما تقصُّه نوادر الحكايات والطرائف.

ذلك أن العم خليـل مـا كـاد ينفض يـده من تـراب القبر الذي وارى جثمان أبي طافش حتى تـذكر أن لأبي طــافش صــندوقاً في مخــزن الفحم داخــل الدكان كان يجمع إليه ثيابه، فمال إلى شيخ الحارة يسـأله رأيـه في الصـندوق وهـو لا يعـرف إلاَّ أنـه

مجاور جاء مكة من قرية في بادية الشام ذكر له اسمها فنسيها على مر الأيام.

وعلى عادة مشايخ الحارة "روح يا بويا اللي زي دا مسكين إيش عنده تعال نفتح الصندوق وإن كان فيه ثياب مقطّعة نقسمها على روحه وبس"!!.

ومضيا إلى مخزن الفحم في الدكان وعالجا قفل الصندوق فإذا هو مكين متين التركيب بشكل أثار ظنونهما في بلاهة أبي طافش فألهب إحساسهما حتى جاءا عليه بعد عناء شاق.

ولفت نظرهما أول ما لفت أن العمق في جوف الصندوق لا يتناسب مع مساحة ظاهرهُ فارتابا في أمره وتحسسا جوانبه وزواياه بدقة المرتاب فإذا يد العم خليل تصطدم بزر بالغ الصغر حاولاه ليعرفا مهمته في الصندوق فلم يفلحا، وبدا لهما أنه يُقفل بشكل معقَّد على مخبأ سري، فلم يدر بخلدهما إلاَّ أنه ينطوي على نقود، فاشتعل حماسهما بدافع من عامل الطمع وعمدا إلى ساطور في الدكان راحا يضربان به في شدة نبهت إليهما جيران الدكان فتقاطر الجيران.. ولم تمض بضع ثوانٍ حتى احتشد الدكان بالفضوليين كلهم يسأل ماذا جرى.. ماذا حدث؟

وسرى الخبر إلى أقرب مركز للجندرمة (البوليس)، فخفوا إلى مكان الحادث ليروا أمامهم صندوقاً من الصاج السميك اختلفت أضلاعه من هول الضرب دون أن يكشف مخبؤه عن شيء.

ونُقل الصندوق إلى مقر البوليس، وسيق البطلان خلفه مخفورين، ورأى ضابط البوليس بعد أن سمع أقوالهما أن يستعين على فتحه بأحد الحدادين.

واستولت الدهشة على المجتمعين عندما انفلق

المخبـأ عن حزمـة من قصاصـات الصـحف التركيـة وأوراق أخرى مكتوب بعضها بالحبر وبعضـها الآخـر بالقلم الرصاص.

لئن ذهبت بعض الظنون إلى أن أبا طافش يتخـذ في صـندوقه مخبـأ سـرياً معقـداً يخفي فيـه ثـروة يجمعهـا فـإن قـرائن الحـال لا تؤيـد مثـل هـذه الظنون، فقد عرفوا من بلاهة وعيه ما لا يسـتقيم مـع هـذا الـوعي، فكيـف بهم وهم يكتشـفون أن مخبأه السري يُخفي قصاصات مضمومة بعناية إلى جانب أوراق مكتوبة بشكل منظَّم.

تُرى هل عاش أبو طافش يستعمل صندوقه دون أن يعرف عن مخبئه السري شيئاً، أم عاش معارف أبي طافش يتعاملون مع سر مُغلَق يتظاهر بـالعيِّ ويتصنع البلاهة ويتقن دوره كممثل بارع؟.

شرع ضـابط البـوليس الـتركي -ولعلنـا نسـينا أن نـذكر أن وقـائع القصـة كـانت في أواخـر العهـد التركي- شرع يقـرأ باللغـة التركيـة في أول ورقـة صادفها تقريراً يُدين موظفاً تركياً متقاعداً بالعمـل ضد الدستوريين في استمبول وأنصارهم في مكة، فلاحت الدهشـة على ملامحـه وارتسـمت بصـورة واضحة عندما قـرأ اسـم المـدين وهـو شـيخ وقـور معـروف في منطقـة بـاب العمـرة ولا يـزال يعيش في البيت الذي يجاور دكان السلتاني.

وقرأ في غيرها أسماء أشـخاص لا يزالـون أحيـاء يومهـا كـان بعضـهم من الأتـراك والبعض الآخـر مكيِّين كـانوا يختلفـون إلى بيت الشـيخ المتقاعـد في أوقات سُجِّلت عليهم تواريخ أيامها وسـاعاتها، كما قرأ في بعض الصحف أخبـاراً عن بعض تنقلات جماعة من السوريين وآخرين من العراقـيين كـانوا يصـلون إلى مكـة في أوقـات متفاوتـة فيتسـللون

إلى بيت الشيخ لزيارته في ساعات سُجِّلت أرقامها وتواريخها في أوراق مرفقة.

رأى الضابط أنه أمام واقعة حال دقيقة بالغة الغرابة، فلم يملك إلاَّ أن يسجل بها محضراً يُذيله بشهود الحادث، ثم يصرفهم ليرفع به إلى والي مكة المختص فيها بحماية الدستور.

وظل المجتمع بعدها في باب العمرة وفي كثير من مناطق مكة لا حديث لهم إلاَّ بلاهة أبي طافش الذي عاش لا يُحسن جمع أكثر من خمس هللات، ويتعذَّر عليه إذا امتحن أن يعرف شماله من يمينه، أو يفرق بين الأصفر والأخضر؟ ثم تنتهي نهايته بمفارقات يستعصي حلها على الفهم الذكي.

كاد أن ينسى الناس بمرور الأيام والأسابيع أبا طافش وما في قصة أبي طافش من غرابة نادرة حتى فوجئوا في أحد الأيام بأوامر القبض على الشيخ المتقاعد.

وتكشَّفت الحوادث عن القصة فإذا أبو طافش من أمهر الجواسيس الذين خدموا الدستوريين في كثير من بلاد العرب وقد ندبته السلطة لِيُحقِّق ريبتها في الموظف المتقاعد، فمثَّل دوره باتِّقان رائع في دكان السلتاني؛ ولكنه ما كاد يعد تقاريره ويشرف بمهمته على النجاح حتى سبقته الجبهة المضادة فكشفته للموظف المتقاعد.

ورأى الموظف المتقاعد أن يتخلص منه، فأطلق في أنفه وهو نائم على كرسيِّه دخاناً مخدراً، جاز أمره على الطبيب المناوب فأمر بدفنه حياً ليلقى حتفه بعيداً في غيابة القبر.

اليتيم المعذب



* * *

إلى الذين يناقشون أخطاء غـيرهم في ضـوء مـا عرفوا من أخطاء أنفسهم أهدي هذه القصة.

- إيش هاذا اللي انت شايله؟

- هاذا.. هاذا شيء ربنا قسم بو.

- أيوه.. لكن ايش هو؟
- هوه.. تسألي ايش هو؟ قولي الحمد لله؟
- أيوه.. لكن برضه ايش هو؟
- والله هو بزره.. ولدتها أمها في الصحية وماتت الأم غريبة.. والبزرة قلبي انشرح لها.. طلبتها من الدكتور أربيها.. ما قصَّر الدكتور الله يجزيه بـالخير سلمني هيا.
- بالله ما قصّر أعطاك هيا؟.. الله يجزيـك بـالخير يـا دكتـور!! انت باللـه راجـل هـادا طولـك! وهـادا عرضك! ينضحك عليك.. يعني أحنـا ناقصـين غلب.. رايح تجب لي غلب فوق غلبي.. صدقوا أهل المثل لما يقولوا: "ما كفاني أبويه راح أبويه جاب أبوه".

***

قـالت هـذا وهي تضـرب بيـدها على صـدرها في أسـف واسـتياء، ثم ولّتـه أكتافهـا وهي تُواصـل تقريعها في ألفاظ جافية وعبـارات قاسـية: (قـال أعطى له هيا الدكتور ما قصَّر.. إلهي يقصِّر عمرك أنت والدكتور اللي أعطاك هيا(.
لم يأبـه الشـيخ لجفـاء زوجتـه، ولم يُكلِّف نفسـه عنـاء الاسـتماع إلى تقريعهـا الجـافي.. فقـد دلـف إلى مخدعـه وشـرع يُهيِّئ للطفـل مضـجعاً فـوق

(الكرويتة) ويسنده ببعض المخدات.

كـان شـيخاً تبـدو عليـه سِـمات الصـالحين من أصـحاب التقـوى. كـان عـف اللسـان لا يفلت منـه الحرف البذيء، ولا تبدر منه الكلمة إلاَّ في معروف أو إحسـان.. كـان يعـرف سـلاطة لسـان زوجـه، ويعـرف من سـوء طواياهـا مـا يُثـير روح الجبـان؛ ولكنـه كـان يـؤمن في قـرارة نفسـه أنهـا إنسـانة تستحق الرثاء والعطف أكثر مما تستحق المقت.

كـان يـرى أن بعض الأشـرار والعصـاة والآثمين، وكــذلك أصــحاب النوايــا الســيئة في الحيــاة من الجبابرة، إلى الطغاة، إلى السفَّاكين والقتلـة، قـد يستحقّون العطف على مـا امتحنـوا بـه لملابسـات خاصة أكثر مما يستحقّون اللوم.

كـانت لـه فلسـفة عميقـة في تنشـئة الطفـل وتربيته وتعويده على ما يتعوّد.. كان يـرى أن بيئـة الشـخص وعـادات محيطـه مسـؤولة في المقـام الأول عن جميـع تصـرفاته في الحيـاة. فزوجـه إذا كـانت شـريرة أو سـليطة اللسـان فمن الغبن أن يمقتها.. وجاره الأناني الظالم لا يـراه مسـؤولاً إلاَّ إلى حد. لأن الملابسـات الـتي صـادفته في الحيـاة هيّأته من حيث لا يشـعر لمثـل هـذا الخلـق.. وكـان

يرى أن اللصوص والقتلة لو صادف نشأتهم تهذيب عادل لتورَّعوا عن سفك الدماء، ووجدوا في أعمق خفايـاهم وازعــاً دينيــاً، يهـديهم إلى الاســتقامة والنبل.

كان يرى هذا الرأي في الحيـاة. وسـواء بـالغ في تقـديره. أو تجنّى بـه على تحديـد المسـؤولية في نظـر المشـرِّعين فـإن حماسـه لمـا اعتنـق كـان لا يدانى.

وتركت هذه الفلسفة أثرهـا في تكوينـه فـانطبع عليها، وانـدمج في تفاصـيلها حـتى ملكت تفكـيره في جميـع مـا يُصـادفه من أخطـاء الحيـاة، وحـتى أصبحت أحكامه على مسـاوىء النـاس لا تصـدر إلاّ من هذا المعين.

كان يؤذيـه غش المحتـالين، ولا يجهـل أسـاليبهم فيضحك ملء نفسه لما يبذلونه من جهود حسـبوها تفنناً وبراعة.. وكان يغبنه بعض (الشطّار) فيأسف في نفسه لمـا فقـدوا من تربيـة ويسـأل اللـه لهم العون.

كـان يرتفـع عليـه الصـوت الجـريء أو السـفيه، فتملك الفلسفة عليه أعصابه وتسـمعه يهمس إلى نفسه في صوت خافت (إن صـاحبي مسـكين فقـد

عوَّدته بيئته ما تعوَّد)!!.
ويُصادفه عتـلٌّ في الحيـاة لا تضـمر طوايـاه حبـاً لأحد، ولا يتمنّى الخير للخير، ولا تسمو أخلاقـه عن الإثم، أو ســـوء الصـــنيع. فلا يلبث أن تعـــاوده الفلسـفة، وتسـمعه يتسـاءل: (تُـرى مـا هي أنـواع الرواســب الــتي تــركت أثرهــا في تكــوين هــذا الضـعيف، وكم عـدد العقـد النفسـية الـتي لـوت استعداده نحو هذا الطريق)؟.
فهل نسـتغرب بعـد هـذا ونحن نـراه يصـمد أمـام زوجـه العتيـة وهي تغلـظ لـه القـول: (أنت باللـه راجل.. هادا طولك.. وهادا عرضك يضحكوا عليـك.. ما كفاني أبويه.. راح أبويه جاب أبوه)!!.
إنه يعلم أنها نشأت مظلومة في بيت أبيها، وأنها كـانت تعـاني من طغيـان امـرأة أبيهـا ممـا جعلهـا تشــعر بــالنقص، وأنهــا اليــوم بعــد أن زال عهــد الطغيان، وأصبحت سيدة بيتها الجديـد تـأبى إلاّ أن تكمل ما كانت تشعر به من النقص بهـذا الاسـتعلاء المقيت، والغلظـة الجافيـة. فهـل يلومهـا على مـا جنى غيرها؟ وهل يؤاخذها فيما ليس لها منـه بـد؟ إنه -فيما تراه فلسفته- ظلم يأبى خلقه العالي أن يرتكب وزره!

فليتغافـل -إذن- عن غلظتهـا وجفائهـا، وليـدلف إلى مخدعه ليهيىء للطفل الذي انشرح صدره لـه، والـذي استوهبه من دكتـور الصـحة مضـجعاً فـوق (الكرويتة)، ويسنده ببعض المخدات.

*** * ***

يـا واد انت مين يعـرف أبـوك؟ أنت رزيـة.. ربنـا رزانا بها في الدنيا وبس.. يعني كان الـدكتور حـق الصـحية اللي ضـحك على الشـيبة اللي مـات اللـه يرحمـه.. وخلاه يشـيلك يجيبـك عنـدي مـا قصـد إلاَّ أذيتي؟ يعني أنا اليوم اثنا عشر سنة وأنـا غاطسـه في غلبــك!.. تقــدر تقــل لي ايش الفائــدة اللي جاتني من هادا الغلب؟

شوف يا واد.. أنـا مـا عـاد أقـدر أصـبر أكـثر ممـا صـبرت.. بكـره أهـرج لـك عمـك أبـو فـروة يأخـذك يشـغلك عنـده في الحجـر والطين لـو تجيب حــق أكلك، وتريحني من خلقتك طول النهار.

وأعتقـد أن القـارىء سـوف لا يفوتـه أن (الـواد) الذي عزمت السيدة أن ترتـاح من خلقتـه ليس هـو إلاَّ طفلنــا الــذي تركنــا الرجــل الطيب ينقلــه من الصحة إلى البيت، ويمهِّد لنومه في مخدعه الخاص فــوق (الكرويتــة)، كمــا لا يفوتــه أن الســيدة هي

نفسها السيدة التي استقبلته بالجفاء الذي استقبلته به في فصلنا الأول. وقد شاء سوء طالعه إلاَّ أن يحرمه الحنان والعطف، وحسن التوجيه، فقدْ فقدَ الرجل الذي تبنّاه قبل أن يحبو على الأرض، كما فقد أبويه من قبل. وترك لرحمة السيدة العاتية تذيقه من قسوتها ما يسيء عقيدته في الحياة، ويترك في نفسه رواسب لا تمحى آثارها.

نشأ الطفل -ونحب أن لا ننسى اسمه (علوة)- في حجر من لا تختلج فيه عاطفة من الشفقة. وعندما درج في حنايا البيت كانت الغلظة تلاحقه إذا تحرك أو سكن، إذا نطق أو صمت، إذا أحسن أو أساء، فانطوت خفاياه على شعور غامض لوّن له الحياة بلون قاتم لا يلمح فيه ضوء، ولا ينفذ منه نور، وهيّأ له عقله الصغير أنه لا معدى في الحياة من أن نعيش ظالمين أو مظلومين.

علمته مربيته كيف يخضع لجبروتها فرسب في نفسه تقديس القوة بكل ما في القوة من طغيان وعسف، وعلمته الاستهانة بحقارته فانطبع على تحقير الضعيف عن عجز، أو حاجة، أو رِقَّة.

واليوم وقد طفح الكيل وهو يتخطى عامه الثاني

عشر، فـإن ظروفـه الخاصـة تسـلمه إلى العم أبي فـروة ليمتحنـه بأقسـى مـا يتحملـه فـتى ضـعيف، ويضع على كاهله ما تنوء به سنه الصغيرة.

كان المعلم أبو فروة مهندساً معمارياً من الطراز النـاجح في مكـة، ولم يكن يعتمـد في نجاحـه مـا يعتمـده المهندسـون من أصـحاب الشـهادات من أدوات هندسية، وقواعد حسابية، ومعـادلات فنيـة.. بل كـانت معلوماتـه الواسـعة في الهندسـة تـتركّز في عصـاه الطويلـة الـتي يتوكـأ عليهـا؛ ويلكـز بطرفها حماره القصير الأسود!!

كان كثـير من ملاّك الأراضـي في مكـة يقدسـون كفاءتـه في الهندسـة المخاخيـة، ويعتمـدون في مهام أعمالهم المعمارية.

- (يابـا.. ايش رأيـك في هـذه الوصـلة الأرض.. نبغي فيها ديوان بشمسة، ومجلسين بمخلواناتهـا، وصـففها، وخزائنهـا، ونبغي المـبيت يكـون فـوق المخلوان.. قدامه خارجة، ومطبخ؛ ودقيسـي كبـير شوية).

ويهـز (اليابـا) عصـاه ثم ينقـر بهـا الأرض كأنـه يسـتوحي عمارهـا من الجن تخطيطـاً يتفـق مـع أوضاعها، ثم يشرعها ويبدأ في قياس الأرض بها..

إنهـا وحدتـه القياسـية الـتي لا تخطىء، فطولهـا محدود بالذراع والبنان، ومعدلها دقيق المعيار.. إن في اسـتطاعته أن يمسـح الأرض بعصـاه في لحظـات، ثم يفـترش الأرض فيسـوّي قطعـة من رملهـا بكفـه، ثم يخططهـا بمـا يشـبه الرمـوز، ثم يسـتوي واقفـاً لينقـر بعصـاه من جديـد ثم يصـور الخريطـة لزبونـه في صـفحة الفضـاء بإشـارات تستوعب مسـاحة الأرض مسـتعيناً بعصـاه لتقـريب الأبعاد، وتحديد مداخل العمارة ومخارجهـا؛ ومكـان الغرف منها.

وكانت شهرة (اليابا) متَّسعة باتِّسـاع أعمالـه في نواحي مكة، وكان يشرف على مئـات البنّـائين في عشـرات العمـارات، فـإذا رجتـه مربيـة (علـوة) أن يضـم (علـوة) إلى أعمالـه في الطين والحجـر لتستفيد بأجره اليومي، وتزيح كابوسه الثقيـل عن صدرها طوال ساعات النهـار، فـإن الأمـر لا يكلـف (اليابا) أكـثر من أن ينـادي بـه: (روح يـا واد اسـأل عن بيت عبد الرحمن عطرجي في الشـبيكة، وقـل للمعلم سلمان يشغلك عنده حتى أجي).

واندمج (علوة) في نفر من أترابه كـانوا يحملـون زنابيـل الـتراب على أكتـافهم في صـفوف أخـذ

بعضها برقـاب بعض، يهيمن عليهـا مـراقب طويـل الهام، صـارم السـحنة، يهـتز في يـده حبـل طويـل مفتـول يُلهِب بـه ظهـورهم كلمـا غـدوا بالزنابيـل مثقلة أو رجعوا بها فارغة.

لم يكن العسف على (علوة) جديداً فقد ألف هـذا اللون من الحيـاة في بيت مربيتـه وانطبـع تفكـيره المحــدود بمعانيــه القاتمــة، فأصــبح لا يســتغرب القسوة على المهين والضعيف بقـدر مـا يسـتغرب الشــفقة الــتي لا يســمع عنهــا إلاَّ فيمــا يقصــه الأطفال من جيرانه دون أن يعرف مدى ظلها على وجه الأرض.

ومضــت الأيــام بــ (علــوة) طويلــة مملّــة كـان لا ينتهي من نهاره فيها بين العمل القاسي، والشِّدة المريــرة، حــتى يســتقبله بيت مربيتــه في جفــاء أقسى.

وغاب في أحـد الأيـام مـراقب العمـل فاسـتطاع الصغار أن يتلكـأوا وراء الحفـر، وسـمعهم (علـوة) يــذكرون بركــة "ماجــل" في أقصــى المســفلة ويصــفون متعتهم على ظهــور الحمــير الــتي استأجروها لنقلهم إليها في يـوم لـه أن يلهـو في زمـرتهم، وأن يمتطي صـهوة حمـار ممـا يركبـون،

فشاقه الحديث، وراقت له الفكرة، وتمنى لــو أتيح له بالثمن، إن مربيتــه لا تُـبيح لـه قرشـاً واحـداً من أجره اليومي.

- "انت يـا واد إن كـان بـدي أقعـد أحاسـبك على اللي صـرفته عليـك حـتى صـرت في هـذا الطـول، أخـاف تغـرق في الحسـاب.. حــط يــا واد فلــوس الأجرة كلها في تبسي السموار اللي في الطاقــة، ترى أن لقيتها ناقصة هللـة.. أهلهـل جتتـك.. حـط الفلوس وتعال غسـل النحـاس اللي ملمـوم طـول النهــار.. شــوفو هنــاك جنب الحنيــة اخلص قــوام علشان تجيب القاز وتفرش الخارجة.. اخلص يا واد لا تنحل قلبي داهية تنحـل اللي وراني وجهـك في يوم أغبر.

وبذلك لا يجد (علوة) مندوحـة لأن يتمتـع (بهللـة) واحدة من (فلوس) أجرته فهل يجد مندوحة لإقناع مربيته لتمنحه (أجر) ركوب الحمار وفرصة للخروج فيها؟

إن هذا آخر ما يمكن أن يُقـال في شـأن مربيتـه، وإنهــا فكـرة لا يصـح بحـال أن يجـرؤ عليهــا فـتى كفتانا (علوة).

كان يعلم بحكم ما فطر عليه في بيت مربيتــه أن

التمــاس الحنــان، واســتدرار الشــفقة أســاليب يسمعها من صبيان الجيران عندما يقصّون قصـص أمهاتهم، أما حقائقها فمعانٍ لم تصافح حياته فيما عـاش، وكـان يعلم بحكم مـا نشـأ -أن من حقـوق مربيتــه أن تتمتــع بخشــونة ســطوتها على مثــل شخصه الضعيف! وأن عليه أن يحني هامته لكل مـا يناله من قسوتها، وأنـه ليس لـه أن يـدَّعي لنفسـه بجوارها حقوقاً إلاَّ إذا استطاع أن ينتزع لنفسه مــا يستطيع انتزاعه اختلاساً، أو تحايلاً؛ أو بأيــة صــورة تتفتَّق عنها ذهنيته الصغيرة.

كان يختلس من قيمة القاز (هللـة) واحـدة، ومن قيمة العيش والسكر والشاي والفحم مـا يسـتطيع أن يختلسه بصورة لا تترك أثرها.. وكان يحــاول ألا يشتري حاجاته إلاَّ من حانوت مـزدحم عـل أمـل أن يزوغ بالبضاعة في غفلة من صاحب الحانوت، فإذا أطبـق عليـه صـاحب الحـانوت فلا مـانع عنـده من اســتيفاء مــا يســتوفيه من ضــرب، أو شــتم، لأن الحياة فيما يصوِّره عقله المحدود لا تعدو أن تكـون غالباً فيها أو مغلوباً، فإذا غلبت فما أحلى أن تهنــأ بما تهنأ به المربية في البيت، ومراقب العمال بين أكــوام الــتراب، وإذا غُلِبت فمــا أحــرى أن تحــني

هامتك صاغراً.

وكانت متعته بما يظفر من اختلاس تتجلى في المزامير التي يشتريها.. فينفخ فيها سيالاً من روحه المعذبة لا ينظمها نغم معروف، أو لحن منسَّق، ولكنه يذوب فيه أنين قلب معذب مجروح!!

وكان يجد لذَّته بما يختلس عند بائع البليلة أو (الليم)، أو صاحب القثاء الذي يفترش الأرض ببضاعته بين زحمة الصبيان وهو يصيح (شرشوا) فينهال الصبيان على قثائه يلتهمونها مغموسة في إناء الماء المالح الذي يسميه (الشرش).

كان (علوة) تُغريه شهوة أمثال هذه المعروضات كما تُغري أترابه من الصبيان. ولكن مربيته لا تقنع بمثل هذه الترَّهات فتمنعه (الهللة) الواحدة إذا سولت له نفسه أن يقتطعها من أجره وتذيقه من ألوان الضرب ما لا يحتمله جسمه فتفتقت حاجته عن شتّى طرق الاختلاس، وتعلم بالتدريج كيف يقتطع الهللة والهللات من أثمان السلع الصغيرة التي تكلفه مربيته بشرائها، واستمرأ هذا اللون بمرور الأيام حتى فقد حساسيته بما يفعل وأصبحت الحيلة لشهواته جزءاً من كيانه.

كانت قهوة (الحمارة) في الشبيكة مجمعاً

للحمّارين في أكثر ساعات النهار، وكـانت سـاحتها الصغيرة تكتظ بعد صلاة العصر من مساء كـل يـوم بهم أكثر ما تكتظ في بقية اليـوم.. كـانوا يصـفّون حميرهم تحت جدران الـبيوت القريبـة من القهـوة يميناً وشمالاً استعراضاً لطالبي الإيجار.

كانوا يخضبون أجزاء من جسمها بالحنّاء في لون وردي جميـل، ويحلّـون براذعهـا بأقمشـة براقـة، ويُنيطون بأعناقها قلائد من الـودع أو الفصـوص و (الشناشن) الـتي توسـوس كلمـا اهـتزت رؤوسـها في إيقاع لذيذ!!

وكان المكارون يدربون الأقوياء منها على الخطو المنظم عنقـاً أو شـداً، ويعلمونهـا الطريـد في أسـلوب لا يختلـف كثـيراً عن أسـلوب الطريـد في الخيل، بل إن بعضها كان لا يعجز أحياناً أن يسـابق الخيل، كما أن بعضها يحمل من أثقـال الركـاب مـا تنوء به البغال.

وكان متعودو الأسـفار بين مكـة وجـدة يعتمـدون أقوياءها في رحلاتهم الشاقة.. فقد كان منهـا مَن يقطع الرحلة بين البلدين في نحو 8 ساعات، بينما تقطعه الجمال في ليلتين متواليتين قبل أن تعرف قفارنا خطوط السيارات.

كما كان بعضها معداً للمتنزهين في ضواحي مكة البعيـدة يسـتأجرونها من مواقفهـا في الشـبيكة، ويمتطون صهواتها في الأصـائل الجميلـة من أيـام الربيع والصيف.

وكان يوم الجمعة عيد المتنزهين على صهواتها.. تزدحم مواقفها في الشـبيكة بطوائـف الشـغّالين، والعمال، وصغار الطلبة، وأنواع من الطوائف التي تحتفي بعطلة الأسبوع من هذا اللـون، وتبـذل في متعتها جزءاً مما اقتصدته من أجرتها في أيامه.

وكان لها عدا موقف الشـبيكة موقـف في خريـق المعلاة وغيره في مـدخل أجيـاد، وغـيره عنـد بـاب الصفا.. يكتظ بالباحثين عن النزهة فوق صهواتها.

ولم يكن لصـاحبنا (علـوة) عهـد بهـذا اللـون من الحياة. فقد عاش في ربقة مربيته لا يعرف طريـق الشارع إلاَّ لشراء أغراضـها، ولا يتصـل بإنسـان إلاَّ ليقضي حاجة محدودة كلَّفته مربيته بها.. أما فكرة العطلة فشيء جديد لم يطـرق سـمعه قبـل اليـوم الـذي سـمع فيـه زملاءه من عمـال الطين والحجـر يلغطـون بـه.. ورآهم يحسـنون لـه مـرافقتهم في أصيل يوم الجمعة الذي اتفقـوا على قضـائه فـوق صهوات الحمير.

كان قد اقتصد بطريقته الخاصة التي تعلمهــا من قسوة مربيته ما يزيد عن العشرين قرشاً.. سرقها من أثمان الحاجيات التي يشـتريها لهـا، واسـتطاع أن يغيب بها عن البيت دون إخطار أو إنذار.

ورأى نفسه لأول مـرة يعتلي صـهوة شــيء.. أي شيء!! فهزته النشوة أكثر مما هـزهُ الحمـار، ولـذّ له الانطلاق في فضاء الله المتَّسع، وتمتـع بأصـيلٍ لم يظفـر في حياتـه المجدبـة بمـا يُضـاهيه جمـالاً ولذة.

وعاد إلى مربيته بعودة الليــل يبكي.. قـال: "إني رحت إلى السمّان كمـا أمرتـني فلمـا وزن السـمن زاحمني بـدوي بكتفـه فوقـع السـمن على الأرض، فأمسكت بالبدوي فضربني، وجرى. فأسـرعت إلى مركز الشرطة أشكوه فأرسلوني مع أحد العســاكر فقضـينا طـوال سـاعات العصـر نبحث عن البـدوي فلم نعرف له مكاناً".

لم يكن في قصـته حـرف صـادق. ولكنهـا كـانت قصة محبوكة أتقن الخوف تأليفها، وكـان يمكن أن تجوز على مربيته لو أرادت المربية أن تقـدِّر درجـة الصـدق فيمـا ألَّف. ولكن مربيتـه لا يعنيهـا الصـدق في أعماله بقدر ما يعنيها الـربح والخسـارة منهـا،

فإذا خسرت اليوم السمن الموهوم فإنهـا خسـرت إلى جانبه ساعتين أضاع الولـد في أثنائهمـا خدمـة البيت، وترك أعماله معطلة.. ولا يعوِّضـها ويشـفي أسـاها من ذلـك إلاَّ (علقـة) حاميـة تُـدمي أطرافـه وتُنهِك جسمه.

وتلقى (علـــوة) (علقتهـــــا) بــــأطراف ألفت (العلقـات)، ومـرنت أحاسيسـه على آلامهـا كمـا مرنت أحاسيس فقراء الهند على تعذيب أجسامهم بما لا يحتمله جلد. وأصبحت تجـد من غـرائب اللـذة فيها ما لا يصدقه عقل.

واستمرأ (علوة) عادة النزهة الـتي تعلمهـا فـوق ظهـــور الحمـــير، واســـتهان في ســـبيلها بكـــل الصعوبات التي كان يتخيل أنها لا تُحتمل فأصـبحت ديدنه في كل أسبوع يُلفق في سبيلها مـا يصـادفه من تلفيـق، ويختلس من أجلهـا مـا تقـع يـده عليـه دون أن يُبالي بفداحة مـا يـرتكب!! وكيـف يُبـالي؟ وهـو اليـائس الـذي فقـد العـدل، كمـا فقـد الحب. وأصبحت الحيـاة لا تعـدو في نظـره المحـدود أكـثر من ختل لا يظفر فيه الضعيف، إلاَّ إذا وطن نفســه على مثل المكاره التي يلقاها من مربيته القاسية، والتي وطن نفسه بمرور الأيام عليها.

* * *

لم يظفر (علـوة) في حياتـه المريـرة الـتي كـان يعيشها في بيت مربيتـه، أو بين عمـال الحجـر في مكان شغله براحة تُسِره إلاّ في العصاري التي كان يختلسها للنزهة مع رفاقه فوق صهوات الحمير، أو في الساعات القليلة التي كان يكلفه فيها (اليابـا) بتوصيل المقاهي إلى بيته في "دحديرة" جبل أبي قبيس.

كان (اليابا) يعيش مع زوجته الـتي أشـرفت على الشيخوخة، وفتـاة لهـا لم تنهـد في صـدرها أثـداء، وخـادم أثقـل السـن واللحم على عجزهـا، وتركهـا قعيـدة في المطبخ كأنهـا صـندوق عـتيق ضـخم لا يريم شعرة عن مكانه أمام (الكوانين).

كـانت الزوجـة ربـة الـبيت، ورئيسـة جاراتهـا في الزقــاق، وكبــيرة على كــل من يعرفهــا من أول "الدحــديرة" الصــاعدة في جبــل أبي قــبيس إلى نهايــة العمــران قبــل قمتــه العاليــة. كمــا كــانت مسـؤولة في نظـر نفسـها أمـام جميـع الملمّـات الهامــة الــتي تلمُّ بأقربائهــا، ومن يلــفُّ لفَّهم من معارف مهما شطَّ دار أحدهم أو بعد.

كـانت صـديقة المرضـى في كـل الـبيوت الـتي

تعرفها أو تسمع بها، وكانت حَفِيَّة بكل من يحتاج إلى معونتها رغم إمكانياتها الضيقة، وكانت تشعر بإحساس عميق بالميل إلى بر ومساعدة الضعيف في حدود طاقتها.. وعندما كان (علوة) يتردد على بيتها يحمل زنبيل "المقاضي" كانت تلمح بعض معاني البؤس ينطق بها محيّاه فلا تملك إلاَّ أن تخفي في صدرها زفرة مكتومة، وتتمنى لو استطاعت أن تتغلغل إلى نفسه لتعرف خفاياه.. ولكنها كانت لا تجرؤ، خشية أن تتفتَّح لها آفاق تُسيئها، ولا تقوى على علاجها.

وتبيَّن لها بمرور الأيام أن مقاضي الزنبيل لا تصل إلى بيتها في مقادير تتساوى مع ما تعرفه من مشتريات زوجها. وأن حبات الموز أو المشمش يبدو فيها أثر النقص فأدركت بإحساسها أن يد (علوة) تمتد إلى الزنبيل لتشبع حرمانه من الفواكه، أو تسد جوعه وما كانت تعلم أن قسوة مربيته واستئثارها دونه باللذيذ الطيب علّمه الاختلاس.. وأنه بعد أن حذق فنون الاختلاس مما تأمنه عليه مربيته من أثمان مشترياتها، أصبح يستطيع أن يشبع رغبته من كل فواكه السوق بثمن ما يختلس من دراهمها، ولكن طبيعة

الاختلاس كانت تأصلت في نفسه، وهيأته القسـوة للثـأر لضـعفه من كـل قـوي.. فمـرن على الختـل، وحذق فنونه، وشعر أنـه منقـاد إلى معانيـه انقيـاد الشـاعر الفحـل إلى مـا يسـبق لسـانه من معـاني الشعر.

مـا كـانت ربـة الـبيت لتعلم هـذا أو تفهمـه.. فلم يتبادر إلى تفسيرها إلاَّ أن (علوة) يُشبع جوْعته، أو حرمانــه من الفواكــه الــتي يحملهــا إلى بيتهــا. فراضـت نفسـها الكريمـة على تحمُّل مـا يسـيء.. وكانت تعلِّل لزوجهـا أسـباب النقص إذا شـعر بـه.. بأنها تسـتوفي نصـيبها من الفاكهـة، كـانت تفعـل هـذا إيثـاراً لمثـل هـذا الصـنف الجـائع المحـروم؛ وتشعر في قرارة نفسها بارتياح لا يعدله حرمانهــا من لذَّة الفاكهة.

واسـتمرأ (علـوة) هـذا الاختلاس، ولم يسـتيقظ ضميره المتبلِّد لسوء ما يفعل.. كما أبت طيبة ربــة الـبيت أن تعاتبـه أو تتركـه يشـعر بأنهـا تفهم مـا يختلس، وكان إذا بدا على ابنتها أو خادمتهـا أنهمـا أدركتا النقص سارعت ربة البيت إلى تعليل الحــال بما يسكتهما وإن لم تقتنعـا، وأمرتهمـا ألا يفصـحا عن مثل هذه الظنون أمام زوجها؛ فكانتـا تطيعـان

ما تقول براً بشمائلها الكريمة.

وكان (علوة) لا ينتهي بزنبيل المقاضـي إلى بيت (اليابا) حتى يتشاغل بمـا يـؤخِّر مقامـه في الـبيت ويحاول أن يشارك الفتاة بعض أعمالها التافهة، أو يُعــنى بصــفِّ عرائســها وينظم الخــرز عقــوداً للعرائس، ويُضيِّع الوقت في ترتيبـه، وتبويبـه فـإذا طال غيابه عن (اليابا) اعتذر له بخدمات تكلّف بهـا في بيته.. وكانت الأم تصادق على ما يخترعه عنهـا لأنهـا لا تمـانع في سـرها بمـا تظنـه اسـتجماماً.. يغتنمـه أمثـال (علـوة) من عنـاء أعمـالهم الـتي لا تحتملها أجسامهم الذابلة.

ولكن (علـوة) كـان منقـاداً إلى معاونـة الفتـاة الصغيرة بشعور مبهم لا يتبين معانيـه.. فقـد كـان قــدَّها الرشــيق، وأعطافهــا الدقيقــة، ونظراتهــا الســاهية تســتهوي عواطفـه في غمـوض لا يفهم تفسيره.

وكانت الفتاة على صـغرها لا تجهـل مركزهـا من (علوة)، وتقـدِّر حفاوتـه بعرائسـها.. ولعلّهـا كـانت تشارك أمها في العطف على إنسانيته المعذبة في شعور صامت لا تفهم من معانيه حرفاً.

وطــالت الأيــام على مثــل هــذا النســق في بيت

(اليابا) ثم انقطع (علوة) عنه فجأة وغـابت أخبـاره عن العائلة، وسئل (اليابـا) عنـه فلم يعـرف شـيئاً، وأرسل إلى مربيته العجوز فذكرت: أنه تـرك بيتهـا إلى غير رجعة، وأنهـا دائبـة البحث عن مقـرِّه دون جدوى.

*** * ***

كانت شؤون الأمن بين المـدنيين في هـذا العهـد الـذي تجـري فيـه حـوادث روايتنـا -أواخـر العهـد العثمـاني- مسـؤولة من قومسـير البـوليس الـذي يُعيِّنه والي الحجـاز الـتركي في مكـة، أمـا شـؤونه في أطـراف المـدن والباديـة فكـانت مسـؤولة من شـريف الأتـراك، أو رجـال الجيش منهم.. فـإن الوالي الـتركي ينـدب العـدد الكـافي منهم لإقـرار الأمن الذي يحاول إقراره بالبندق، والمدفع، ولهذا كان الأتراك يكـثرون من إنشـاء الحصـون والأبـراج على طـول الطـرق ويوكلونهـا إلى حـراس أشـدّاء يتناوبون الإقامـة فيهـا، كمـا أن شـريف مكـة كـان يبـذل بحكم مكانتـه بين القبائـل، وسـطوة حرسـه الخاص (البواردية) ما يمكن بذله في سـبيل الأمن، ولكن شـؤون الأمن بـالرغم من هـذا أو ذاك كـانت مثلاً عالياً للفوضى والعبث.

ولعلي لا أبعد كثـيراً إذا علَّلت أهم أسـباب العبث والفوضـــى بتوزيـــع المســـؤولية في البلاد بين حاكمين كانا يتنازعان الاختصـاص في أوضـاع غـير محدودة، ومسؤوليات غير مركَّزة.

فالدولة العثمانيـة كـانت تـولي أمـر الحجـاز أحـد أشراف مكة من البيت القديم الحـاكم فيهـا.. ومـع هذا كـانت لا توليـه ثقتهـا الكاملـة.. بـل تنـدب إلى جانبـه من يمثِّل سـلطتها من الأتـراك في وظيفـة (والي) ليُشـــرف على شـــؤون المـــال والإدارة والأمن.. فيرتبك شأن الإمـارة وتضـيع الحـدود بين صـاحب الإمـارة وصـاحب الولايـة، ويتعـذَّر معرفـة المســؤول الأول عن شــؤونها. ولــو وكلت أمــر أحـدهما إلى الآخـر لـتركزت المسـؤولية، وتحـددت الاختصاصات.

لم يوكل أمر أحـدهما إلى الآخـر.. فأبـاحت لهمـا تنازع الاختصاص.. لذلك كانت أمور الرعايـا تـتراوح بين السلطتين، وكان في استطاعة القـوي منهمـا أن يوســع دائــرة نفــوذه على حســاب الآخــر، وأن يفــرض شــكيمته في البلاد دونــه.. فلا غرابــة أن يعبث العــابثون في بحبوحــة هــذه الفوضــى، وأن يستغلوا فرصة تنازع الاختصاص لصالحهم.

كان بعض أشراف مكة لا يتورَّع عن تشـجيع بعض العابثين.. ليُثبت للقصر العـالي في الآسـتانة عجـز الـوالي، وعجـز دوائـره البوليسـية، والدفاعيـة عن إقــرار الأمن.. كمــا أن بعض ولاة الأتــراك كــان لا يبالي بتمرُّد العابثين إلاَّ إذا كانوا من قبائـل تـوالي بيت الشريف ليثبت لمراجعه في الآستانة أن منشأ الفوضـى بيـوت المـوالين للأشـراف. ولـذلك كـان بعضـــهم يتكلّف الإغضـــاء عن كثـــير من حـــوادث السرقة ليحصر جهوده في حوادث خاصة يرى أنهـا تستطيع إثبات علاقتها ببيوت الأشراف.

بذلك ضاع الغـرض السـامي من إقـرار الأمن في البلاد، وحـل محلـه تـربص المتنـازعين على الحكم للدسيسة ضد بعضهما.. ولهذا وجد العابثون بالأمن ميداناً واسعاً لأعمالهم.. فكانت بعض القبائل تعبث بأمن الطريق، فينطلـق عسـكر الـوالي في أثـرهم حتى يظفر بهم في القليل، أو يشردهم في الأكثر ليستأنفوا عبثهم في مناطق أخرى.

وكـــان بعضـــها يفـــرض الأتـــاوات على الحجـــاج فيـدفعونها صـاغرين، ثم يصـل الأمـر إلى شـريف مكة فيزبد ويرعد ثم لا يفعل إلاَّ ما يفعله الأتيكيت، أو يصــل إلى الــوالي فيــأمر جنــده بــالكر والفــر،

وإطلاق البنادق في أعقـاب المعتـدين.. فلا يظفـر إلاَّ بما يُسكت الرسميين وإن لم يقنعهم.

وكانت مكة إلى جـانب ذلـك ممتحنـة بطائفـة من السـرقة والنشـالين اسـتطاعوا أن يـبرعوا فيمـا امتهنوا براعة نادرة المثال في تاريخ أمثالهم.

وقــد اشــتهر منهم في هــذا العهــد الــذي نقصُّ حوادثه:

"أبــو سـعيد -أمين جـاوي -حامـد مخـربش -عبـد الرحمن عورة -الدنكاشي -وكثير غيرهم".

كان بعضهم يراهن على نشل ما في جيبك. ثم لا ينتهي حـديث الرهـان حـتى تكـون محتوياتـه قـد انتقلت إليـه دون أن تشـعر، وكـان بعضـهم ينـذرك لتتحصــن ضــد عدوانــه، ويعين لــك السـاعة الــتي يســطو فيهــا ثم لا يخلـــف إنـــذاره رغم جميـــع الاحتياطات التي تحاولها.

وكــانوا مــع هــذا معــروفين بأشخاصــهم لــدى المســؤولين والأهــالي، ولكن ذلــك لم يمنعهم من العبث لأن فكــرة إقــرار الأمن في البلاد لا تشــغل رؤوس المســـؤولين في بيت الشـــريف ومركـــز الــوالي بقــدر مــا يشــغلها العمــل لسياســتهما المتضادة.

كان الأهالي يقولون -وقد ظلوا إلى وقت طويل يقولون- إن الدولة العثمانية رحيمة!.. ولكنها لم تكن رحيمة بقدر ما كانت مهملة.. ولم يكن إهمالها يصدر عن عجز بقدر ما يصدر عن غرض.. كانت دبلوماسية ممثِّلها التركي، تقتضيه أن يفسح صدره للعاتين، وأكثرهم في مكة من الحجاج وبعضهم من الأهالي لئلا يهيئ أعداء من كل صنف، وبحسبه أن يتربَّص الفوضويين ممن يشتبه في موالاتهم أو قربهم للأشراف ليُضيف ذلك إلى أدلَّته ضد الأمير دون أن يبالي بالغرض الأساسي من تعيينه في مثل هذا المنصب!!

ولو استطاع أن يتفق أصحاب الإمارة، وأصحاب الولاية على إقرار الأمن للأمن لما عجزوا عن تحديد المسؤولية وإيقاف العاتين عند حدودهم!

وقد ظلت ذيول المأساة إلى عهد طويل بعد جلاء العثمانيين من الحجاز.. فإن الملك حسين الذي استطاع أن يستقل بأمره في الحجاز ضرب بيد من حديد على جميع العاتين والسرقة في مكة، ولم يعجز عن قطع دابرهم فيها.. وقد فعل قريباً من هذا في كثير من المدن؛ ولكنه عجز عن تأمين جزء هام منها أخصه في طريق المدينة.

وتلك هي ذيول المأساة فإن الحسين كان يخشى تمرد القبائل القوية الـتي كـانت تعيش مدلّلـة في عهد العثمانيين وأن يسري هذا التمرد إلى جيرانها فتسوء العاقبة. فحـاول أن يـداريها بالقسـوة مـرة والرأفة أخرى، وهو يؤمل أن يصل على مـر الأيـام معها إلى نهاية حاسمة، ولكن الأيام جلتـه قبـل أن يقضي أربه منها.

ويبدو هذا واضـحاً في معاملتـه مـع غـير القبائـل القويــة وشــذّاذ اللصــوص في المــدن من جميــع الألوان الذين لا تجمعهم عصبية واحدة، فإنـه حـزم أمــره في شــأنهم دون أن يبــالي، واســتطاع أن يقضي بحركة واحدة على جميع أعمالهم.

لم يسترسل الفصل السابق بنـا في غـير مجـرى حوادث قصتنا، فإنه بحث كان لا بد منــه لاســتطراد قصة (علوة) الذي كنـا رأينـا قسـوة مربيتـه تعلّمـه الاختلاس وتدفعه في حركة لا شعورية إلى مهاوي الحياة، والذي رأيناه ينقطـع فجـأة واحـدة من بيت (اليابا) ويغيب عن بيت مربيته؛ ويتركهـا تـدأب في البحث عنه في غير جدوى.

لم يولـد (علـوة) منحـرف الأخلاق أو مسـتقيمها، وإنما وُلـد كمـا تولـد العجـائن اللدنـة قـابلاً للتكيُّف

والصيانة.. وأكبر ظني أنه لـو مـدَّ في حيـاة مربيـه الأول الـذي اسـتهداه من دكتـور الصـحة.. لهيّـأه المربي لما كان يعرف من ألوان الصـلاح، وبثَّ في روحه هلاماً طاهراً يضيء اتجاهـه ويهديـه الصـراط السوي.

لكن القضاء فجعه فيه، ووهبه سيدة لا ينبض في فؤادها حنـان، ولا يـومض في حناياهـا بصـيص من عطف.. ولقـد كـانت صـادقة كـل الصـدق في أول يوم دخـل الطفـل فيـه بيتهـا عنـدما ضـربت بيـدها على صـدرها وأعلنت زوجهـا اسـتياءها في ألفـاظ جافية وعبارات قاسية.

كانت صادقة لأن هذا الصنف لا يضمر أصحابه بما جُبِلت عليـه قلـوبهم إلاَّ أسـوأ مـا يضـمره الحقـد والشر.

فلا غرابة أن تقسو في معاملتـه رضـيعاً، وصـبياً، وغلامــاً، ولا غرابــة أن تــؤثِّر القــوة في معنوياتــه اللدنة وتهيئ منه إنساناً لا يؤمن بالخير في الحيـاة لأن في الخير حروفـاً لم تطـرق سـمعه حين نشـأ؛ ولم يصادفه من معانيها ما يدلـه على مظانِّهـا في الحياة.

نشأ (علوة) منساقاً -بعوامل لا يفقه كنههـا- إلى

الثأر من الحيـاة.. في أشـخاص من يواتيـه الظفـر بهم، فكان لا يتورع عن اختلاس أو ختـل أو سـرقة ما يستطيع فيه الاختلاس، أو الختـل، أو السـرقة.. وكأنه بهذا يريد أن يضيف إلى ثأره في الحيـاة ريّـاً لروحه الظامئة من طول ما أرهقه الحرمان.

وإنه لماضٍ في طريقـه ذات مسـاء في منعطـف من دروب أبي قبيس إذ صادفته فتاة صغيرة السن تحلّى جيدها بقطعة ذهبية راقه بريقها، وقـدَّر لهـا ثمناً صالحاً للتوسعة على شهواته فلم يتكلّف أكـثر من أن يدنو إليها ويـربت على كتفيهـا فيمـا يشـبه الحنو، ثم يترك يده الأخرى تعالج عقدة الحليـة في هـدوء، ثم يسـلم رجلـه إلى الـريح قبـل أن تنتبـه الفتاة الصغيرة إلى ما حدث.

ومضى من فوره إلى زقاق الصاغة على أمـل أن يـبيع الحليـة قبـل أن يتنبَّه أصـحابها إلى فقـدها، ولكن القـدر كـان مخبـوءاً لـه على كثب منـه في شخص (بصّاص) سري لاحظ ارتباكـه فقبض عليـه، فتلعثم؛ فقاده إلى جاويش تركي في أقرب نقطة حيث استجوب فاعترف بسذاجة اللص البدائي.

*** * ***

قدَّمنا في فصل سابق أن شؤون الأمن في مكـة

كانت مسؤولة في بعض نواحيها من أمير مكة على رأس حرسه و (بواردیته) إن كنـا نـذكر البواردیـة - وهم نوع من الحرس كان یتكلّف بإحضـار الخصـوم إلى بیت الشریف في مجلسه أو قـائم مقامـه في دهلـیز الـبیت- كمـا كـانت شـؤون الأمن في نـواحٍ أخـرى أهم مسـؤولة من والي مكـة یمثِّلـه فیهـا قومسـیر للبـولیس على رأس ثلّة من الجنـد (الجندرمة)، وكانت أعمال الجندرمـة في البـولیس شـبیهة إلى حـد مـا بأعمـال (البواردیـة) في بیت الشریف.

وكان یتبع البولیس (بصَّاصون) مختصّون بالرقابة السریة یتعقّبون المجرمین في أثواب مدنیـة، ومـع هـذا فقـد كـانوا غـیر مجهـولین بأشخاصـهم وأسـمائهم من المتوطّنین في مكـة.. أمـا معتـادو الإجـرام فكـانوا وثیقي الصـلة بهم وكـانت إشـارة واحـدة من أحـدهم إلى البصـاص كافیـة لإفسـاح الطریق أمام إجرامهم.. لهذا كانت أعمال المجـرم العاتي لا یشوبها خطر إلاّ إذا اختلـف مـع البصّـاص أو أساء معاملته.

وكان فتانا (علوة) أصـغر من أن یحـذق شـیئاً من هذه الأسرار، لهذا كان لقمة سـائغة للبصّـاص عنـد

أول خطوة أراد أن يخطوها في جد.

لم يشفع له سنه لـدى (البصـاص) كمـا لم تنفعـه سذاجته أمـام ضـابط البـوليس، وأمـام القومسـير فيما بعـد، وليس هـذا خطـأ حكّام الـترك وحـدهم.. لأن دراسـة النفـوس الملتويـة فكـرة لم يتناولهـا نظام خاص في كثير من شعوب الأرض.

وأعتقد أن الحياة سيدميها السير طـويلاً قبـل أن تنتهي إلى اليوم الذي تشعر فيه بحاجتها إلى هدم أكثر آرائها في علاقة المجتمع بالمجرمين.. فليس الإجـرام فيمـا أعتقـد أكـثر من مـرض لـه أسـبابه السيكولوجية وأعراضه التي تتنـوَّع بتنـوُّع جراثيمـه الخاصـة.. فـإذا اسـتطاع العلم في أحـد الأيـام تشخيص حقائق المرض، واستطاع أن يتتبَّع أنواعـه الـتي لا يحـدها حصـر، وأن يتعقَّب الجرثومـة المتأصلة في حقيقة كل نوع على حدة.. فسوف لا يعجز عن علاجه بغير الطريقة التي اعتادتها الحياة إلى اليـوم.. وعندئـذٍ سـيبدو مقـدار تعسـفنا في امتهـان المجـرمين، وتسـرعنا في الأحكـام على أعمـالهم قبـل التثبُّت من دوافعهم إلى الإجـرام.. ورحم الله خليفتنـا الفـاروق الـذي أبى أن يعـاقب السرقة في سني المجاعة، فقد كان أغـزر دراسـة

لأركان الجريمة من ملايين الحكام الـذين افترضـوا خصـــومتهم للمجـــرمين دون أن يكلفـــوا أنفســـهم النظر في دوافعها الحقيقية.

وفتانا (علوة) أحد ضحايا هذا الافتراض الظـالم.. فقد نشأ في بيت عطّل أحاسيسه بما يفعل، وترك عقله الصغير يحدد علاقته بالمجتمع في إطار ضيق أغراه بالختل، وعلمه الاختلاس ودرَّبه عليه دون أن يشعر حتى ألِفـه.. والإنسـان عبـد لمـا ألِـف.. فـإذا ساقه سوء الطـالع إلى طريـق (البصّـاص)، ثم إلى موقـــف الحـــاكم. فهـــل نأمـــل من (البصّـــاص) أن يشفق على ضعفه؟ أو من الحاكم أن يُكلف نفســه دراسة الدوافع الحقيقية إلى الإجرام؟

إن في هذا من التكلّف في نظر الحياة اليـوم مـا لا يتَّسـع لـه مـدى عاقـل.. أمـا السـبيل الطـبيعي المتفـق عليـه فليس سـوى الامتهـان الـذي يليـق بأمثال هذا البائس.

إذا كـان بعض الموهـوبين قـد هـداهم العلم إلى حقـائق كبـيرة درسـوها في نفسـيات المجـرمين.. فأولئـــك قلـــة في أطـــراف الأرض لم تعـــترف حكومـاتهم بـآرائهم إلى اليـوم، في الغـالب الأعم، اعترافاً رسـمياً يؤهـل درجهـا كقواعـد في أنظمـة

الحكم، وإلا لهدمت تلك الحكومات جميـع سـجونها، وأقـامت على أنقاضـها مستشـفيات تعـالج فيهـا أعتى المجرمين، كما تعالج الأمـراض المستعصـية، وتُعِـــدُّ لهم بفنونهـــا حيـــاة تـــؤهلهم للاســـتقامة والشرف.

*** * ***

سيق (علوة) إلى سجن القلعة على كتـف الجبـل المعروف في أجياد، فلم يتـألم إحساسـه لمـا نالـه من امتهان وصفع، وشعر في قرارة نفسه أنـــه إذا خـاب اليـوم في صـفقة مـع الحيـاة، فلا يجب أن يجزع لقسوتها.. لأنه سيقسو إذا ظفـر بعـد اليـوم دون أن يعتد بآلام غيره إذا تألم.

سـيق إلى السـجن فاسـتقبل فيـه طوائـف من البشـر كأنهـا النحـل تطن بين خلايـاه.. كـانت كـل طائفـة تتجـانس في مسـتواها، تحتـل غرفـة من عشـرات الغـرف المتزاحمـة حـول ردهـة السـجن، فمضى يرود الخلايا غرفة بعـد أخـرى، لعلـه يـأنس إلى ظل يقيـه الشـمس، حـتى انتهى إلى سـقيفة نائية مهجـورة في طـرف نـاء من السـجن.. فـأوى إليها في جسم متهالك ولم يبرح مكانه منهـا حـتى اقترب منه أحد المسجونين:

- واد أنت قاعد هنا لحالك ليه؟
- والله يا عمي أنا محبوس.
- طيب موكلنا محبوسين زيك.. بس هـادي وصـلة عفنة شوية.. مـا أحـد يقعـد فيهـا.. شـوف الغـرف التانيه ادخل أي واحدة منها، واجلس.
- ما أعرف أحد يا عمي.
- أنت من أهل مكة.
- ومتى حبسوك؟
- دوبهم.
- وليش حبسوك؟
- كـدبوا علي وقـالوا سـرقت من الولـد الصـغير ريال مغربي كان لابسه في حلقه.
- وأنت ما سرقته؟
- لا والله يا عمي.
- ومين أهلك؟
- ما عندي أهل.
- كيف يعني، طلعت مزروع في الأرض؟
- واحدة هناك ربتني.. حرمة في البيت ولا عندها رجال.. ولا تدري إني انحبست.
- طيب ما أحد راح قال لها؟
- لا والله.

- طيب وأنت أكلت ولا لسع؟
- ما أكلت.
- وعندك فلوس؟.
- عندي واحد مجيدي وعشرة قروش.
- خليهم معاك وتعال كل معنا لقمتين.

ومضى به السجين إلى الغرفة التي تحتلها طائفة. وكانت تضم نحو ثمانية أشخاص ظنهم لأول وهلة من رؤساء السجن، لما رأى من نظافة ثيابهم ووجاهة الفرش المبسوط في غرفتهم.. كان أحدهم يتكىء على حشيّات نظيفة من القطن.. وقد عقد الدخان سحاباً كثيفاً من سيجارته في جو الغرفة، وجلس اثنان في ركن آخر من الغرفة على وسائد ليِّنة يلعبون (الضومنة).. بينما تفرَّق غيرهما في أركان أخرى من الغرفة يتبادلون الحديث أو يقتلون الوقت في لعبة (الانن).

كان نظام السجن في هذا العهد من أرفق أنظمة السجون في العالم، إذا قيست تقاليده بتقاليد غيره.. فقد كانوا يبيحون للسجين أن يرتدي ملابسه الخاصة، وأن يستحضر لأكله ما شاء من طعام، ولنومه ما شاء من فرش.. ولمّا كان

السـجن في العـادة لا يخلـو سـجناؤه من طبقـات تختلف باختلاف مراكزهـا وغناهـا، فقـد كـانت كـل طائفــة تجتمــع إلى طائفتهــا في غرفــة خاصــة لتشترك فيما تستحضره فيها من طعام أو شراب.. فأصحاب الغـنى متميِّزون بغنـاهم، كمـا هـو الحـال في المتوسطين والفقراء.

ومن العــادات المتَّبعــة في الســجن: أن أغنيــاء المســجونين تصــلهم الأطعمــة من بيــوتهم في كميـات وافـرة، تفيض على أمثـالهم عـدة مـرات، فكـانوا يطعمـون بعضـها، ويوزعـون أكثرهـا على المعتقلين في غــرفهم الأخــرى.. لأن الســجن لا ينفق على هؤلاء الفقراء إلاَّ في القليل النادر.

وكان السـجناء الأغنيـاء لا يسـتغنون عن خـدمات زملائهم من الفقــراء في ســائر أغراضــهم في السجن.. وبـذلك يجـد البؤسـاء مـورداً طيبـاً يُهـوِّن عليهم لأواء السجن، ويحمل عنهم مصائبه!!

وقـد وجـد (علـوة) في الرجـل السـجين وأفـراد طائفته ما أغراه بالبقاء عندهم رهن خدمتهم!

واختلـط (علـوة) بكثـير من نـزلاء السـجن في الأسبوع الأول لدخولـه السـجن، وكـان بحكم صـغر سنه، يستطيع التنقل بين سائر الغـرف دون حَـرَجٍ

من أصـــحابها.. فقـــد كـــانوا يُكلِّفونـــه بكثـــير من خـدماتهم داخـل السـجن، فيمضـي فيمـا يكلِّفونـه بنشاط لم يعهده فيما كانت تكلِّفـه بـه مربيتـه من قبل؛ ولعـل ذلـك كـان نتيجـة لعـدم شـعوره بـروح الكراهية التي كان يشعرها في بيت مربيته، أو لأنه أدرك أن مـا يجمعـه بزملائـه في السـجن، أقـرب كثيراً إلى معاني التفاهم من جامعته بغيرهم.

وزاد اختلاطـه بهم بمـرور الأيـام، فكـان يسـتمع إلى قصصـــهم، وينصـــت في عنايـــة إلى روايـــة البطولة في أحاديثهم.. هذا فـذ في سـطوه، وذاك حكيم في نشـله، وأولئـك من المعـدودين في فن العبث بسـلطان الدولـة.. صـور لا يحصـيها العـدد، تمثِّل في مجموعهـــا ألوانـــاً من حيـــاة الإجـــرام مطبوعة بطابع الفروسية القديمة.

استمع (علوة) إلى عشـرات القصـص وعشـراتها من هذا النوع فتأثرت نفسيته الضـعيفة بروعـة مـا فيها من بطولة زائفـة، وتعشَّـق أمجادهـا الكاذبـة، وتمنى لو أتـاحت لـه الأيـام أن يقفـز إلى صـفوف المعدودين في طلائع الإجرام.

وعـرف في السـجن مجرمـاً من عتـاة اللصـوص كـانوا يدعونـه (أمين جـاوي) وكـانوا يكـبرون فيـه

ســـطوته، ويتحـــدثون عن نـــوادره في الجـــرأة والبســالة.. فـأُعجب بمميزاتـه كمـا تحـدثوا عنهـا، وهالــه فيــه القــوام النــاهض، والنظــرة الثابتــة، والمحيّا الناطق بالقوة والتحدي.

وبـــدا "لأمين جــاوي" أن الفــتى (علــوة) أحــد المعجبين به، فحنا عليـه حنـو الكبـار، وكـان يـربت على كتفه مشجعاً كلما سمعه يروي حكايات مقتــه على مربيته، أو ينعى قسوة الأقوياء على الضعفاء في الحياة.

وتوثَّقت الصلة بين فتانا وأستاذه.. وكان الأستاذ نابغـة في فنـون النشـل، فلم يبخـل على تلميـذه بدروس طويلـة تعلم فيهـا أفـانين النشـل، وحَـذِق ألاعيبها وكثيراً من حيلها.

***

كـانت قهـوة العم سـالم تحتـل بنـاءً واسـعاً في أعالي خريـق المعلاة، بجـوار مسـجد الجن قبـل أن يمتد العمران بشكله الحاضر إلى ذلك الجزء، وكـان يدير أعمال القهـوة فيهـا كهـل من أمهـر أصـحاب المقــاهي في مكــة، وأكــثرهم عنايــة بــالروّاد، وأشدُّهم حزماً على خدمـه ويقظـة لجميـع وسـائل النظافة في مقهاه.

كـان روّادهـا في أمسـيات أيـام القيـظ الشـديد يتمتعون بمائه البـارد المعطّر، قبـل إنشـاء معامـل الثلج في مكــة.. فقــد كــان يصــفُّ قِلال المــاء - ونسـميها ربـاعي- بالمئـات في مكـان اسـتراتيجي من مقهـاه يتعـرض لهبـوب الـريح، فلا يكـاد رائـده يحتــل كرســيه بين (المراكــيز) المصــفوفة، حــتى يصيح الصائح (ربعي يا وليد) في صـوت مجلجـل لا ينتهي من آخر مقطع فيه، حتى يكون (الربعي) قد وصل إلى (الطرابـيزة)، وبـدأ الظـامئون يطفئـون حرارة القيظ من مائه البارد المعطَّر.

ويتوالى مجيء الطلبات في سـياق مطَّرِد، لا أثـر فيـــه للتلكـــؤ، لأن صـــاحب المقهى على كثب من عماله فيها يتبع حركاتهم دون أن تطرف له عين.

وكانت مساحة مقهـاه من أوسـع المسـاحات في مقاهي مكة، وأنقاها هـواء.. وكـان لمقهـاه سـطح مشــرف يعــد إلى جانبــه الســاحة الواســعة حيث يتوسَّــد النــائمون كراســي نظيفــة يجــدون فيهــا متنَّفساً ممـا ضـاقوا بـه في بيـوتهم، كمـا يجـدون وســائد وأغطيــة لا تقــل في نظافتهــا عن ســائر موجودات المقهى.

وكان خدمه يحرسون نـوّام المقهى في سـاعات

الليـــل بالتنـــاوب، دون أن يجـــرؤ أحـــدهم على التراخي، أو يخل بواجبات ما وُكِّل إليه من عمل.

وفي إحدى الليـالي، وبينمـا كـان زبـائن المقهى قـد توسَّـدوا كراسـيهم الطويلـة، واسـتغرقوا في سُباتهم إلاَّ نفراً قليلاً في أحد الأطراف البعيدة من المقهى كانوا يهزجون ببعض أغـانيهم البلديـة في أصوات هادئة، إذا بضجَّة ترتفع في طـرف آخـر من المقهى وبصوت صارخ يتهدج: (حرامي.. حـرامي.. امسـكوا الحـرامي)، فاسـتيقظ أكـثر النـوّام على صوت الصارخ، وجرى بعضـهم إلى مصـدر الصـوت، وتبعهم الحـرس فتقـاطروا مسـرعين للنجـدة.. ثم علا الصـخب، وكثُـرت الضـجة، وجـرى بعض خـدم المقهى يحملـون فوانيسـهم إلى مكـان الضـجة، فرأى المجتمعون في ضـوئها شـبحاً هـزيلاً يتسـلل بين الكراسي؛ ثم يعدو في خفَّة القط إلى الحائـط بجـوار المقهى يُطِـل على قبـور المعلاة فيتسـلقه ثم ينحدر إلى القبور فيضيع أثره بينها.

وتحمس الحـــرس، ورجـــال من رواد المقهى، وبعض حملة الفـوانيس فتتبعـوا أثـره وراء السـور حيث رأوه ينحـدر؛ فلم يجـدوا لـه أثـراً.. وفتشـوا بعض القبـور الـتي وجـدوها مفتوحـة فضـاعت

جهودهم هباء.

وعنــدما عــادوا إلى المقهى علمــوا أن الشــبح اســتطاع أن ينشــل كيس النقــود من بين مخــدّات النــائم وكــان فيــه مبلــغ من (المجيــديات) وبعض القطع الفضية (الاستانبولي).

وعلم صــاحب المقهى بمــا حــدث في الصــباح، فشــدَّد عقوبتــه على الحــرس، وفصــل بعضــهم، وأضـاف غـيرهم بعـد أن أوصـاهم بـالحرص. إلاّ أن جميــع الترتيبــات ضــاعت هبــاء، لأن شــبح الليلــة البارحة عاد مرة أخرى إلى الظهـور، واسـتطاع أن ينشل نائماً آخر، ثم يذوب وراء سور القبور.

وعلم صاحب المقهى بالأمر، فاشــتد حنقــه على اللص الســاخر، وحلــف ألا يغـادر مقهـاه من ليلتـه حتى يكشف الأمر؛ ويعرف سر ذوبانه بين القبور.

ورأى أن يبدأ فحصه في ضوء النهـار.. فاكتشـف بين القبور المهجـورة قـبراً يتصـل قاعـه بسـرداب صـغير سُـدَّت فوهتـه بحجـر ضـخم، وأزاح الحجـر، فرأى السـرداب لا يزيـد عن حفـرة تتَّسـع لجلـوس رجل ضـئيل الحجم.. فـأدرك أن اللص يتخـذ مخبـأه عنـدما يـذوب بين القبـور في هـذه الحفـرة الـتي يغطي فوهتها الحجر..

فـإذا تعقَّبـه السـاهرون، ثم افتقـدوا أثـره بين القبـور اكتفـوا بتفـتيش القبـور دون أن يـرعى انتبـاههم حجـر مـتروك في قـاع أحـدها. لأن قيـاع القبـور لا تخلـو ممـا تحـدَّر إليهـا من الأحجـار المحيطـة، ولأن أضـواء الفـوانيس لا تسـتطيع الكشف عما خفي وراء مثل ذلك الحجر.

وبذلك استطاع صـاحب المقهى، عنـدما اسـتأنف اللص عودته من ليلته الجهيـدة أن يترصَّـده بجـانب الحفرة، وأن يضع يده عليه في يُسر وسهولة.

وسيق اللص في زفَّة صاخبة إلى نقطة البـوليس في سوق المعلاة.. وبدأ يستقبل اللطمات من كف المفوَّض التركي في النقطة.

ولـو اسـتطاع القـارىء أن يهتـك الأسـتار عن حقيقة اللص، لأدرك أنه صاحبنا (علوة)، وعرف أنه لم يكمل مدة السـجن المقـررة، حـتى اسـتطاع أن يحذق كثيراً من الحيل التي تعلمها من أسـتاذه في السجن (أمين جاوي)، وأنه لم يغادر بابه حتى كـان قد وطد عزمه على العمل لنفسه، ولنفسه فقـط، بين مجتمع لا يظفر فيه إلاَّ الغالب.

كان أستاذه يرى في الحيـاة آراءً لهـا خطورتهـا.. كان يعتقد أن اللصوصية بمعناها الصحيح لا تقتصر

على جماعة محـدودة سـمّاهم النـاس لصوصـاً، بـل هي حالة متأصلة في جميع الطبقات دون اســتثناء إلاّ في القليل الشاذ.. فالعميـل المحتـال، والتـاجر المسـتغل، والمتمـوِّل المخـادع، والوجيـه المنتفـع بوجاهتــه بطــرق لا تقرُّهــا النزاهــة، والقــوي المستفيد من قوته في قضايا يعلم زيفهـا، ومالـك الأرض أو معمِّرها الذي يضيف ببعض حججه الكاذبة قيراطاً يعرف أنه لا يملكه.. كل هـؤلاء، وأنـواع من أمثالهم، أكـثر خطـراً منهم على الإنسـانية، يجب - في رأيه- أن يُضافوا إلى اللصوص، بل يُدرجوا في أوائـل قـوائمهم.. ولكن العـرف التقليـدي تغاضـى عن حقائقهم في كبريـاء وتضـليل، بـل مضـى إلى أبعد من هذا فكلَّل جهود الممتـازين منهم بأكاليـل من الغـار، وسـمَّى بعضـهم أبطـالاً، وأهـداهم من النعوت ما يغري!! بينمـا اضـطهد غـيرهم، وألصـق بأوصافهم ما جرَّدهم من معاني المروءة والشرف.

فسارق الزهر مذموم ومحتقر
وسارق الحقل يُدعى الباسل الخطر[2]

وجدت هذه الأفكـار الخطـيرة سـبيلها سـهلاً إلى نفسية (علوة) الناقمة على أوضاع الحيـاة فـتركت

---

[2]() - قلت (الجامع لمقالات السباعي) : وهو من شعر جبران خليل جبران ، من قصيدة يقول فيها :
وَالعَدل في الأَرض يُبكي الجنّ لَو سَمِعوا بِهِ وَيستَضحكُ الأَموات لَو نَظَـروا
فالسّجنُ وَالمَوتُ لِلجانيــنَ إِن صَـغرُوا وَالمَجدُ وَالفَخر وَالإِثراء إِن كبـرُوا
فَســـارق الزَّهــرِ مَذمــومٌ وَمُحتَــــقَــرٌ وَسارِقُ الحَقل يُدعى الباسِلُ الخطرُ
وَقاتــــلُ الجـســمِ مَقــــتولٌ بِفـعــلَتِـهِ وَقاتــلُ الرُّوحِ لا تَدري بِهِ البَشــَرُ.

أثرها فيه، وأعدَّته للشر، أكثر مما أعدَّته مربيته في تربيتها المنحرفة.. فلم يغادر سجنه حتى كان قد وطَّد عزمه على ما وطَّد.

وقادته رجله إلى السجن بجرمه الجديد، ولم يمضِ على مغادرته أسبوع، فاستقبله في تبلُّد وبرود.. ولعله سُرَّ بلقاء أستاذه في الغرفة التي تركه بها.

*** * ***

وقبل أن يمضي يومان على دخوله السجن، أسرَّ أستاذه إليه أنه بالاشتراك مع بعض الزملاء قد قرروا الهرب وأنهم دبَّروا لذلك خطة محكمة لا ينقصها إلاَّ التنفيذ العاجل، وأن في استطاعته إذا أراد الاشتراك، أن يُعِدَّ نفسه للتنفيذ في ساعة متأخرة من الليلة الآتية. فسُرَّ (علوة) لعناية أستاذه به وشاركهم فيما دبروا، واستطاعوا معاً بفضل الخطة المحكمة التي نظموها أن يجدوا أنفسهم طلقاء قبل أن يلمع الفجر.. إلاَّ أن سوء طالع (علوة) قاده من حيث لا يدري إلى (خريق المعلاة)، حيث لمحه الجندي الذي صحبه إلى السجن في جريمته الأخيرة، ولما أراد أن يستوقفه ليتحقق أمره أسرع (علوة) يطلق العنان لساقيه؛ ولكن الجندي -وكان من العدّائين قبل الجندية- استطاع اللحاق به قبل أن يفلت.

وسيق مرة أخرى إلى السجن بعد أن ضوعفت عقوبة سجنه، وأدرج اسمه من جديد في (قوائم) العتاة من أصحاب الإجرام.

وكانت وطأة السجن عليه في هذه المرة أشد مما عرفها من قبل.. فقد آلمه نجاح رفقته دونه، كما آلمه فقد أستاذه الذي كان يأنس إليه، ويجد في صحبته ما يخفِّف عنه وحشة السجن.

ولم يطل ألمه كثيراً فقد جمعته الصدف بسـجين من طلبـة العلم كـان كثـير القـراءة، كثـير الصـلاة، فاستهواه ترتيله الجميل لآيات القـرآن، وخشـوعه الطويل على مصلاه كلما حان وقت الصلاة. فـآثره بتقـديره، وتـوافر على خدمتـه.. وعنـدما علم أن جريرة الشيخ في السجن لا تعدو تهمة كيدية، شعر نحوه بعاطفة من الميل لم يشعر بها نحو غيره من قبل.

وأحس الشيخ بميل (علوة) إليه فبادله حبـاً بحب، ثم سمع قصصاً من حياته فعرف مـوطن العلَّة في تربيته وأدرك بواعث الحقد والكراهية التي تأصَّـلت في أعماق نفسه.. فأغرتـه بالجريمـة، وعلَّمتـه من ألـوان الشـر مـا حسـبه يفي بثـأره في الحيـاة.. فوطن عزمه في سره على تتبُّع مـوطن الـداء من نفس الفتى، وأن يحتال حـتى يستأصـل الجرثومـة من موقعها، ويحل ما تعقد حولها من طحالب.

لم يواجـه الشـيخ فتـاه بمـا كـان من آثامـه في الحياة، أو يحاول تسفيهه، وتشنيع خطاياه.. وإيراد ما يناسب المقـام من صـيغ الوعّـاظ ليُقيم الـدليل على فحش مــا جــنى خشــية أن يســتثير أنانيتــه وعناده.. بل تناسى جميـع جرائـره وآثامـه، وتحبَّب إليه حـتى ملـك عليـه عواطفـه ليسـتطيع أن يوجِّه قيادهُ في أناة ولين من حيث لا يدري.

حتى إذا تمَّ له ذلك عمد إلى شـرح نـواحي الخـير والشر في الحياة.. في أسـلوب لا يمتُّ بصـلة إلى مـا اقترفـه (علـوة) فيهـا. ليكـون البحث عامـاً لا علاقة له به من قـريب أو بعيـد، وكـان يـدلِّل فيمـا يشرح بما يحضُـره من أقاصـيص أخَّاذة أو فكاهـات مُسـرية، فكـان الفـتى يصـغي بكـل جوارحـه إلى حديثه الطريف، ويسـتحثُّه ليواصـل مـا قطـع منـه،

ويستعذب روح الفكاهة فيما يقص عليه من حكايات.

وكان يزيد في عجب (علوة) مدى الفرق بين ما عرفه عن حقائق الحياة التي استقاها من بيئته الخاصة، وبين ما تكشَّف له من آفاق جديدة فيما يحدثه الشيخ.. فكان الشيخ يُدرك وجه تعجُّبه، ويتطوع بالتفسير.

- (أنت يا (علوة) ما شفت الدنيا إلاَّ من جهتها السوداء.. قست عليك اللي ربتك، وقسا عليك اللي اشتغلت معاهم في الحجر والطين، وما وجدت واحداً في طريقك من أهل الخير، فظننت الدنيا كلها كدا أهل شر، لكنك لو واجهت الدنيا من جهة ثانية كان شفت أنه فيها كمان بياض يفتح النفس، وشفت أناساً من أهل الخير تتعب أناساً من أهل الخير).

وكان الشيخ يشفع نظرياته في الموضوع بقصص لأهل الكرامة والنبل ومحبي الخير في الحياة، فيترك (علوة) يحس بحقيقة جهله، ويزداد تعجبه من تصوراته الخاطئة التي كان يرسمها لذهنه عن حياة الناس.. وبذلك تحلّلت العقدة في أعماق (علوة) وبدأت آفاقه تتَّسع لنظريات الشيخ.

واستمر الشيخ في ترويض (علوة) بأسلوبه الحكيم الهادىء، حتى تعشَّق (علوة) بمرور الأيام مبادىء الشيخ وتمنى لو أُتيح له الانطلاق ليصافح الحياة من جوانبها البيضاء، ويبحث عن وجه الخير فيها.

** * **

وعندما انتهت أيام سجنه وأسلموه إلى الباب.. تنفس الهواء الطلق ملء رئتيه، ومضى في خطوات ثابتة يتلمس الحياة من جانبها الأبيض.

كان قد عول على طرق أبـواب العمـل الشـريف، فأخــذ ســمته إلى طبــاخ كــان يعــرف دكانــه في القشاشية بجوار البريد القديم، عسى أن يجد لديه عملاً يقيم أود حياته الجديدة.. لكن الطباخ مـا كـاد يسمع طلبه حتى عرف فيه (شقياً) قديماً، فأشــاح بوجهه دون أن يُجيب بحرف واحد.

ترك دكان الطباخ وأخـذ طريقـه في انكسـار إلى مقلاة للحمص كـانت على خطـوات منـه، فلم يكـد يـرحب بـه صـاحب المقلاة، حـتى تـذكر أنـه عـرف الشخص قبـل اليـوم، فاسـتدرك الأمـر بطـرده من الدكان.

وخيَّم الليل على (علـوة) وهـو في طريقـه يـذرع الشوارع والدروب، ويتسكع بين الدكاكين علّه يجــد من يقبلـه في عمـل، أو يسـأله لشـغل، حـتى دبَّ التعب إلى أعصابه، وأنهكه الجوع.

وكان يملك من دنيـاه (مجيـدياً واحـداً)، اسـتبقاه في جيبه من النقود القليلة الـتي كـان ينفحـه بهـا بعض أصحاب الخير في السجن فاشترى منـه بعض العيش والتمـر، وعـوَّل أن يواصـل سـيره إلى أحـد المقاهي في الخريق ليأكل مما اشترى وينام على أحد أسرة المقهى إلى أن يوافيه الصبح.

إلا أن صاحب المقهى ما كـاد يلمحـه حـتى تـذكر قضيته ليلة حـادث السـرقة الـتي اختبـأ بعـدها في القبر المهجور، فأبت غيرته لزبائنه أن يقبل نومــه عنـده، فطـرده في قسـوة واضـحة، وفعـل مثلـه صاحب مقهى آخر، حـتى أبت جميـع المقـاهي في الخريق قبوله لديها، لأن أصحابها كـانوا قـد علمـوا جميعهم في ليلة الحادث بما جرى قـرب مقـاهيهم من مكان الحادث.

فمضى به الـدرب بأسـوأ مـا يمضـي فيـه إنسـان

كسير القلب مكدود، ولقد ساورته أفكاره القديمة عن آرائه القاتمة في الحياة؛ ولكنه صمد، وأبى إلاَّ أن يواصل الجهد حتى يصافح الحياة المشرقة التي بشَّره الشيخ بحقائقها.

وعادت به قدماه إلى حيث أتى، فلما انتهى إلى القشاشية، دلج إلى المسجد الحرام، فأدّى فريضته كما تعلمها من الشيخ، ثم بسط طعامه فأكل ما استطاع مكدود مثله أن يأكل، ثم افترش (إحرامه) حيث كان، وأراد أن يهجع، ولكن الشرطي المكلّف ما كاد يراه مضطجعاً. حتى أمره بالجلوس، أو مغادرة المسجد، لأن النوم ممنوع فيه.

وحاول الجلوس فأبى النوم ذلك عليه. فغادر المسجد إلى القشاشية مرة أخرى، ثم دلج يصعد في الأزقة الضيقة إلى جبل أبي قبيس.

ولم يصل إلى قمته حتى كان التعب قد أرهق مفاصله فأوى إلى صخرة في القمة، وافترش (إحرامه) لينام فأقضَّ مضجعه نباحٌ عالٍ، ونظر فإذا عدد لا يحصى من الكلاب تطارد ذئباً بين مخارف الجبل، وحقّق نظره فإذا الذئب يختفي بين شغاف الصخور القريبة منه، بعد أن ضلّت الكلاب سبيلها إليه، ووقفت على عدوة مما اختفى توالي النباح في أصوات مزعجة.

وجفاه النوم، واشتد به القلق، وأحس أنه على كثب من خطر الذئب الكامن وراء الصخور. فابتعد عن المكان ما أمكنته قدماه المرهقة، وحاول النوم من جديد. ولكن القلق كان قد زاد الكرى عن أجفانه المثقلة، وسمع أصوات الكلاب تدنو نحوه، فأيقن أن الذئب قد غادر مخبأه إلى حيث يطارده الكلاب، فوجف قلبه خوفاً؛ وازداد اضطرابه.

وكانت ليلة ليلاء قاسى من أهوالها ما لا يحتمل،

وعز عليه أن يظفر فيها بهدوء أو راحة.

***

واستأنف سعيه من الغداة بحثاً وراء الرزق. فاستطاع بعد عناء شاق أن يجد عملاً في أحد مصانع النوْرة، وكان ترتيبه في المصنع سياقة الحمير الموثَّقة بأكياس النوْرة من مصنعها وراء جبال أبي لهب إلى مركز بيعها في حارة الباب من مكة، فصادف ما لا يحتمل من وصف الجري، والانغماس في حفر النورة واستنشاق ذراتها الحادة على من لم يألف العمل فيها. ولكنه كان قد اعتزم الثَّبات؛ وآلى على نفسه أن يروِّضها في حياته الجديدة.

واستمر يتخذ مأواه كل ليلة من مكانه المختار في قمة أبي قبيس، وبعد أن قطع الكلاب دابر الذئب الذي يرتاد المخارف فيه، فكان ينعم بمرقده الخشن يؤرقه نباح الكلاب العابثة في آفاق الجبل؛ ثم لا يلبث أن يغزوه النعاس.

وظل على أمره في ذلك أياماً.. استطاع في أثنائها أن يُشبع حاجته إلى الطعام، ولكنه توجَّس شراً قبل أن يتمَّ أسبوعه الأول، لأنه لمح رجلاً كان يعرفه من رواد مقاهي الخريق يطيل النظر إليه وهو يفرغ وسقة من النورة في دكان البيع، ثم رآه يتجه إلى المشرف على البيع في الدكان، ويُسِرُّ إليه في صوت خافت كلاماً أحسَّ أنه يعنيه، فوجف فؤاده واضطرب.

وصوَّر له خياله أن ماضيه بات مكشوفاً منذ الساعة لأعمامه في العمل فتوجَّس الشر، وبات ليلته في أسوأ ما يبيت حزين مهموم، كان يقول في نفسه: أمن العدل أن أعاقب بجرائر ساقتني إليها ظروف كنت أجهل مقاومتها؟ وإذا كان الله

قد شمل التائبين بعفوه، فما بال عباده يناصبونهم العداء، ويغلقون أمامهم، أبواب الحياة؟

وتلقى في صباح اليوم التالي أمـر رئيسـه بـترك العمـل، ولم يتـورَّع الـرئيس أن يضـيف إلى أوامـر الطـرد بعض النصـائح: -يـا واد مـا دام انت حـرامي وردِّ حبوس جي تمتحنا بنفسـك ليـه؟.. روح شـوف عينك زي اللهبة من أول يوم جيت عندنا.. هيا روح أقلب وجهك.

وصعَّد (علوة) زفرة أودعها كل آلامه وقال:

(يا عمي أنـا كنت حـرامي.. ولكن تبت، وعاهـدت ربي ما عاد أسرق أحد.. واللـه يـا عمي أنـا فـرحت بالشغل اللي لقيته عندك، وقالي عقلي يـا واد مـا دام الحالـة ماشـيه كـده تقـدر تنسـى كـل شـيء، وتبتـدي تمشـي مسـتقيم في الـدرب الجديـد زي الناس المهديين).

ولكن العم صاحب المصنع، أبى أن يقتنـع بأمثـال هذه الكلمـات، ورأى من الخـير لمصـنعه أن يحتـاط بإبعاد من توجَّس فيه الشبهة، ونسي في مثل هذا الحال أن واجبـه كإنسـان أن يُسـدي إلى مثـل هـذا البائس فرصة جديدة إلى الحياة البريئة التي يتـوق إليها.. وتلك حالنا في الحيـاة، كـانت ولا تـزال تعـد الآثمين، والخــاطئين، والجــاهلين لأســوأ معــاني الإجرام.

لم يتكلف صاحبنا أمـام هـذه التوسُّـلات أكـثر من نظرة يشيع فيها الازدراء والاحتقار.

- تروح يا واد.. وإلا أزهم لك العسكري؟

وبذلك راح (علوة) ولم يرح.. لأن أقدامـه سـاقته إلى دروب طويلة كان لا يعرف وجه الطريق فيهـا: أمــا روحــه فكــان لا يــدري أتركهــا على كثب من مهابط المصـنع، أم اصـطحبها معـه بين متعرجـات

الـدروب الضـالة.. ذلـك لأن شـعوره فقـد الفهم والحساسية.

وطوى يومه وليلته لأن جيبه لا يحوي ثمن رغيف يُشـبعه، ثم أرشـد إلى مكـان التكيـة القديمـة في المسـعى فـزاحم حـتى نـال رغيفـاً وشـيئاً من (الشوربة) فسدَّ جَوْعته، ثم طوى يومه وليلته حتى ظفر بمثلها في صباح جديد، وظل أمـره على ذلـك أياماً كان لا يتبلّغ فيها إلاَّ وجبـة واحـدة ينالهـا كـل صباح من مبنى التكية.

وراودته نفسه بسؤال الناس ولكنه كان يزجرهـا، ويُحسن الصبر لها لتكفِّر عن أخطائها فيما مضى.. تلك الأخطاء التي كان يشعر في قرارة نفسـه أنـه لا رأي له فيها.

وعـوَّل على أن يبحث عن معلمـه القـديم (أبـو فروة)، لعله أن يقبـل ضـمَّه إلى عمالـه في البنـاء ولكنه ما كاد يسأل عنه حتى علم أنه فارق الحيـاة. وكـاد أن يسـوقه الحـديث إلى السـؤال عن زوجـه الصـالحة، وابنتـه الجميلـة.. ولكنـه آثـر أن لا ينكـأ جروحاً قديمة بذكريات كهذه وأن يبعد مـا اسـتطاع عما يشتمُّ فيه روائح الماضي.

ووفق له عمـل في ذات يـوم بين عمـال الحجـر، ولكن العمال ما فتئوا أن عرفوه فوشـوا بـه.. فلم يتركه صـاحب العمـل يتمُّ يومـه.. فاسـتأنف البحث عن غيره، وغيره. حتى اشتغل عند سـمّان، ونجّـار، وحدّاد في أيام غير متعاقبة. فلم يفلح في الـدوام عند أحد.. لأن ماضيه الكريه كان يأبى إلاَّ أن يتعقّبه حيث اتجه.

واشتغل خادمـاً في أحـد الـبيوت فطـرده صـاحب البيت بعد ساعات من التحاقه عنده، وصادفه تـاجر فأتمنه على شيء من بضـاعته يتجـول بهـا ثم علم

بعـد يـومين بـأمر ماضـيه فلم يقبـل بقـاءه لديـه.. فظل على أمره أياماً طويلة.. ولكن عزمه مـع هـذا كان قـد تـوطّن على الجَلَـد وآلى ألا ينحـرف مهمـا بلغت به المعاناة.

***

ومضـى بـه الثَّبـات إلى غايـة طويلـة سـمع في نهايتهـا إنسـاناً يحدثـه عن مدينـة جـدة وسـهولة الكسـب فيهـا، فلم يفكـر طـويلاً فيمـا سـمع، بـل اصـطحب أول جمّـال رآه يغـادر جـرول إلى طريـق جدة، وساير جمَّاله ماشياً على قدميه بعد أن تــزوَّد ببعض التمر والعيش.

وهـــداه تفكـــيره في جـــدة إلى الاســـتغناء عن (إحرامـه) وثوبـه والاكتفـاء (بسـرواله) فلم يتـوانَ فيما فكر.. بل سلمها إلى أول مشترٍ نقـده فيهمـا ثلاثة (مجيديات).

وقصد من تَوِّه إلى حلقة الخضار فاشترى بضاعة من الكرّاث بجميع ما يملك ثم انتحى إلى ناحية من الطريـق فقسَّـمها إلى حـزم، وانطلـق ينـادي في الصباح الباكر معلناً عن بضاعته بصوت عارم أودعه كل آماله في الحياة.

وأحصـــى نقـــوده في نهايـــة اليـــوم فوجـــد أن مجيدياته أوشـكت أن تتضـاعف، فشـجعه هـذا على استئناف العمـل، وإضـافة شـيء من الليمـون إلى بضاعة الكرّاث.

ودام عمله في الكرّاث والليمـون أيامـاً وجـد في نهايتها أن نقوده تتَّسع إلى إضافة نـوع أو نـوعين، فلم يتلكّأ في المزيد، ولم يبخل بجهده فيه.

ووجد مع الأيـام زاويـة صـغيرة تنحـرف في رأس زقـاق يطـل على أحـد الشـوارع الرئيسـة فاحتلهـا ببضاعته، واسـتطاع أن يعـرض بضـاعته فيهـا على

أنظار المارة، وأن يستغني عن التجوُّل، فـدرَّ عليـه ذلــك أخلاف الــرزق، وشــهد النــاس من طيبتــه وسماحته ما حبَّب إليهم معاملتـه فكـانوا يفضـلون قضاء حاجاتهم منه، وجرَّبه أصحاب البيوت القريبـة فثبت عندهم حدبه على الصـغار الـذين يرسـلونهم لقضاء ما يحتاجون منـه، وبـرّهم بأصـنافه الطيبـة، وتعفُّفـه عن الغش والمغالطـة، فسـاروا بسـمعته إلى كل من يعرفون حتى بَعُـدَ صـيته، واشـتهر في حيِّه الواسع بمعاملته الصادقة.

وتوسـعت أعمالـه بعـد عـام قضـاه في تجارتـه الجديـدة، واسـتطاع أن يضـيف إلى أصـنافه حـتى تعدَّدت الأنواع في دكانه، وتفاقمت أرباحه.

وطالت إقامته في جـدة.. أمـا أصـحاب السـوابق من الآثمين والمجـرمين فكـانوا يجـدون في بيتـه الواسـع الـذي بنـاه في ضـاحية البغداديـة مـأوىً يلوذون به كلما أحوجتهم الحاجة أو مسَّهم الجوع.

وكان أصحاب البيوت المجـاورة لـه في البغداديـة يرون عنايته بالأشرار ولا ينكرون ما يرون تقديسـاً لما شاع عندهم من خلاله العالية، وبرِّه الـذي كـان لا يقصره على عالم من الناس دون آخر!!

وعندما اتَّسع حاله تـذكر موطنـه الأول في مكـة، ونازعه إليه الحنين فاقتنى في بيته دابـة خصصـها لرحلاته إلى مكة كلما استفزه الشوق إليها.

وكان لا يمكث في مكة طويلاً لأنه كـان يتحاشـى الوجـوه القديمـة الـتي تعـرف ماضـيه، ويحـاول ألا يظهر أمام أحد من معارفه هرباً من الفضول.

ونازعه الشـوق في إحـدى روحاتـه إلى مكـة إلى العائلة القديمة الـتي كـان يرسـله عمـه أبـو فـروة لخدمتها في البيت، وتذكر عطف سيدة البيت، كمـا تـذكر عيـني ابنتهـا النجلاوين فسـاقته قـدماه إلى

دارهما في زقاق الجبل وراء الصفا.

وقابلته الفتاة بسرور واضح، وقادته إلى أمها المريضة على سريرها فعلم منها أنهما افتقرا بعد موت عائلهما أبي فروة، وأنهما باتا يخشيان أن يفرق الموت بينهما قبل أن تُبنى الفتاة على شاب يضمن لهما الهناء والسعد.

وتراءت له في الحال فكرة خطوبة الفتاة فلم يتردَّد كعادته في حزم الأمور، وتقدَّم إلى الأم في شأن ذلك بعد أن ساق إليها ما جهلت من فصول حياته، وأنبأها بنتائج الظفر التي بلغها، فوافقت الأم ولم تعارض الفتاة فانتقل بهما إلى بيته في جدة وعاش سعيداً معهما.

*** * ***

ووقف على دكانه في أحد الأيام زبون كانت أسماله البالية تنمُّ عن فقر مدقع، فلما حقَّق (علوة) فيه النظر، عرف في أسماله زميلاً قديماً من زملاء السجن، فخالجته الشفقة في شأنه، وأبت مروءته أن يتقاضى منه قيمة ما اشترى.. فكان لشفقته رد فعل كلفه ثمناً غالياً في الحياة.

وأطال الفقير نظره إلى (علوة) في دهشة المتعجِّب، وحاول أن يعرف في ملامحه شخصية مرت به قبل اليوم، فلم تسعفه الذاكرة. ولكنه أيقن أنه يعرف هذه الملامح، وتمنى إلى (علوة) أن يساعده فيما نَسي. فتخابث عليه وأبى أن يكشف عن شخصيته لزميله القديم حياء من إذاعة سر لا يشرِّفه في محيطه الجديد.

وتردَّد الفقير على دكان (علوة) استدراراً لعطفه. فكان (علوة) لا يبخل بعطاياه الطيبة. بصورة أغرت بطول الترداد، واستطاع الفقير بمرور الأيام أن يعرف قصره في البغدادية، كما

اســـتطاع أن ينضـــمَّ إلى بعض البؤســـاء الـــذين تشملهم حسنات الدار؛ وتجمعهم مائدتـه في أكـثر الأوقات.

وعرف من زملائه حقيقة (علـوة) كزميـل قـديم، فاسـتغرب أن يواتيـه الحـظ في مثـل هـذا اليسـر النادر، وكَبُـرَ عليـه أن تبخـل الأيـام على مثلـه بمـا يغني حاجته إلى الطعام والمأوى.. وتلك أحاسـيس تثير الحسد بما في الحسد من مشتقَّات.

وليس غريبـاً أن يشـعر هـذا الصـنف من النـاس بمثل هـذه الأحاسـيس المُمِضَّـة كنتيجـة لحرمـانهم وقسـوة النـاس عليهم، فقـد كـان (علـوة) نفسـه يتعذب بمثل هذا المـرض قبـل أن يصـادفه الشـيخ، ويُعــنى بــه، ويشــفي مــركَّب النقص في أعماقــه بوسائله العلمية التي أحالته من مجـرم آثم يجـدِّف على الحيـاة ويتمـنى هلاك من فيهـا، إلى إنسـان جديد.. يتعشق خير الناس؛ وينبض فؤاده بحبهم.

ولو صادفت بائسنا الجديد مناسـبة تهيَّأ لـه فيهـا اختصاصي من أطباء النفوس لاستطاع بوسائله أن ينــتزع جرثومــة الشــر، وأن يبــذر في مكانهــا مــا اسـتطاع أن يبـذره الشـيخ في أعمـاق (علـوة) من بذرة الخير!!

فرح الفقـير باهتدائـه إلى حقيقـة (علـوة) الـتي كان يحاول إخفاءها حياء من بيئته الجديـدة، فـأراد أن يستغل هذا الحياء إلى أبشع حـدود الاسـتغلال.. فواجه (علـوة) بمـا فهم من حقيقتـه، وأردف بأنـه سوف لا يتخلى عن كتم سره! حرصاً على سمعته! ما ظل (علوة) يبره بما يصلح شأنه بين الناس.

ولم يأبــه (علــوة) في أول الأمــر بمــا لــوَّح بــه الفقير، كما أنه لم يمـانع في إسـداء المعونـة إلى إنسان يعاني مثل هذا البؤس.. إلاَّ أن المعونـة أبت

أن تقـف عنـد نهايـة تحـدها.. لأن أطمـاع الفقـير كانت تتطور كلما تطورت الأيام.. حتى باتت أقـرب إلى الضــرائب منهــا إلى معــاني الإحســان، كمــا تطورت أرقامها إلى مقادير فاحشة.

وعنـدما غضـب (علـوة) لكرامتـه، أبى الفقـير أن يُـداهن عواطفــه الثــائرة.. فقــد كــان يشــعر أنــه يتقاضى أقل مما يستحق ثمناً لصـون شـهرته ممـا يشوبها في نظر النـاس، وأبى (علـوة) أن يعـترف باسـتخذائه لمـا يضـمر الفقـير.. فكـانت الجفـوة، وكان الكره.. ورؤي الفقير بعدها يولي ظهـره إلى (علــوة) وقــد لاحت على محيّــاه معــاني الغــدر الذميم!!

وشاعت في جـدة على أثـر هـذه الحـوادث قصـة أرملة غنية.. سطا عليها أحد اللصوص فاغتالها، ثم ســرق مــدَّخراتها من المــال، والنفــائس، دون أن يترك وراءه أثراً ينمُّ عليه. فنشـط رجـال المبـاحث في البوليس للتحقيق في الحادث.. فلم يتبيَّنوا مـا يُنــير لهم التحقيــق، فاســتاء قومسـير الجندرمــة، وأعلن بين مشـايخ الحـارات ووكلائهم عن مكافـأة سخية لمن يُرشد إلى ما يضيء التحقيق.

وفي ذات مساء، اسـتأذن الفقـير على قومسـير البوليس.. فلما أذن له، قصَّ عليه ماضـي (علـوة)، وما كان يشوبه من شوائب.. ثم قـال "وهـو اليـوم يرأس عصابة من أخطر اللصوص يسرقون ما تناله أيــديهم ثم يــأوون إلى بيتــه.. ليقسِّــم بينهم مــا ســرقوا، ويحتفـظ لنفسـه بالنصـيب الأوفـر وقـد حـاورني أحـدهم للانضـمام إلى عصـابتهم فـأبيْت، وأخــبرني هـذا عن حكايـة سـطوهم على الأرملـة، واغتيالها، وسرقة مدَّخراتها من حلي ومتاع، ونقله إلى بيت (علوة) توطى لاقتسامه.. وفي استطاعة

حضرة القومسير أن يتأكد من حقيقة (علوة) التي أرويها في دفاتر البوليس في مكة، وأن يأمر بمهاجمة البيت ليجد متاع الأرملة مختبئاً في أي مكان خفي منه!

ولم يتسرَّع قومسير البوليس قبل أن يتحقَّق من شخصية (علوة)، فاستدعى شيخ حارته ليتعرَّف منه على هويته بصورة سرية.. إلاَّ أن شيخ الحارة خيَّب جميع الظنون التي خامرت القومسير في شخص (علوة)، وأكد تأكيداً لا يقبل الجدل: أن (علوة) مثل نادر للاستقامة والشرف، وأن مبالغته في الإحسان إلى المعوزين، وفيهم المتشرد والآثم وإفساح بيته لإيوائهم، هي عيبه الوحيد إذا صح أن في الإحسان عيباً.

وأظهر القومسير لشيخ الحارة مبلغ اقتناعه بما زكّى به (علوة)، بعد أن حذَّره شديد الحذر من إفشاء حرف واحد مما سمع، فخرج شيخ الحارة مطمئناً إلى نتيجة ما دافع به، ولم يبح لنفسه أن يفشي شيئاً مما حدث براً بما وعد.

وانتدب القومسير بعد هذا من تحرّى حقيقة (علوة) في دفاتر البوليس بمكة.. فانتهت إليه النتائج بأنه لص سابق تعود الإجرام، وأنه غافل الحراس في إحدى المرات وهرب من السجن ضمن عصابة من زملائه، يرأسهم (أمين الجاوي) المشهور بجرائمه في مكة.

انتهت هذه النتائج إلى بوليس جدة، وليس في منطق البوليس من أي لون كان أن يصيخ إلى غير ما تنطق به صحائف السوابق.. لأن توبة المجرم فصل لم يدرَج إلى اليوم في قواميس البوليس.

وفي ذات أمسية من أمسيات جدة المشرقة بإشراقة القمة الساطع وكان (علوة) قد ارتفق

حافة نافذته المطلة على البحر المـترامي، يشـرف منها على الأمواج اللامعة تحت ضوء القمر، فاجــأه دخول أحد الخدم:

"عمي.. يا عمي (علـوة).. إن فلانـاً الفقـير أسـرَّ إلى عم جمـال الطبـاخ بأنـه رمـاك عنـد البـوليس بتهمـــة القتـــل، وأن البـــوليس لا يلبث أن يقبض عليك".

- طيب روح انفلق أنت وهو.

وقبل أن يروح الخادم (لينفلق)، ترامى إلى سمع (علــوة) دمدمــة خافتــة وصــلت إليــه من النوافــذ الخلفيــة المطلــة على بــاب القصــر، فأســرع إلى النافذة يستوضح الأمر.

* * *

قال الخادم يحدث طباخ القصر، بعـد أن اسـتولى البوليس على ما في القصر رهن التحقيـق، وطـرد منه جميع الخدم.

- (واللــه يــا عم جمـال.. أنـا شـفت عمي (علـوة) وهـو يجـري إلى المخلـوان في السـاعة اللي كـان البـــوليس بيهـــاجم فيهـــا القصـــر.. ولكن فين راح بعـدها مـا أدري.. فص ملح وداب.. دخـل البـوليس إلى كل غرفة فلم يجـد لـه أثـراً، ودخـل حـتى في المخلوان فلم يجد له أثراً.. ما أدري إن كان له باب سري خرج منه.. لكن فين هـذا البـاب السـري؟ مـا أدري.. ما فهمته أنا ولا قدر البوليس يفهمه.

* * *

وبذلك أُسدل الستار على الرجـل التـائب، وضـاع في غمـرات الحيـاة كضـحية لمـا نسـميه (صـفحات السوابق).

ورؤي (علوة) بعد سنوات من الحـادث في مدينـة من جـــزر جـــاوا، يصـــاحب أســـتاذه القـــديم (أمين

الجـاوي)، الـذي علمـه بعض فنـون اللصوصـية في السجن!! فهل عاد سيرته الأولى؟؟
- إذا صح هذا فمن المسؤول؟؟

أبو ريحان السقا



* * *

كنا نشهده ونحن مصعِّدون في ضحوة النهار المبكر إلى مدرستنا (الراقية) على كتف جبل هندي [1].

نشهده في أغلب أيامنا منحنياً تحت قربته (الشعارى) الكبيرة ينقل خطاه في تثاقل تحت وطأتها متوكئاً على عصاه القصيرة كأنها رجل ثالثة أرادها ليُخالف بها من يمشي على رجلين أو على أربع.

وربما بلغ أبو ريحان منتصف "الدحديرة" الصاعدة إلى جبل هندي قبلنا، فيقف إلى دكة هناك هيأها السقاةُ لراحتهم، وهي على ارتفاع خاص يسامت ظهورهم إذا وقفوا إليها وجعلوها كمحطة تستريح عليها "قربهم" لبينما تهدأ أنفاسهم من عناء التصعيد؛ ثم يستأنفون صعودهم.. إلى بيوت الجبل.

وكنا شلة من صغار الطلبة تجمعنا الشقاوة وحب العبث بعم ريحان دون جميع السقاة الصاعدين أو الهابطين في جبل الهندي.

كان أبو ريحان يمتاز بقربة تتعدَّد ثقوبها بشكل غريب فلا تفتأ ترش الشارع خلفه وجميع ما يتصل بالشارع من مشاة أو بضائع تحتل الطريق أمام دكاكين أصحابها.

وكان من عبثنا أن ننتظر عم ريحان آتياً من "بازان الشامية"، يحمل قربته الرشاشة.. ننتظره في مطلع الجبل إلى جوار دكان هناك كان يفترش جزءاً من الشارع ببضاعته.. حتى إذا أقبل وقف أحدنا لاصقاً بالحائط وفي يده شيء من النبق ماداً يده: "خذ يا عم ريحان".

وعم ريحان (نفسه رتعة)، لا يكاد يرى النبق في

يد أحدنا أو قطعة من "الجزر اليماني" حـتى يميـل بخطوة ناحية الواقف في لهفة فيتصوب الرشـاش إلى بضاعة الدكان وينال زنبيل الدقيق منـه الكثـير الذي يعجنه.

ولا يكاد أبو ريحان يشعر بـالمقلب الـذي نسـوقه إليـه فنحن نعـرف أن صـاحب الـدكان شـرير وأنـه يكفي لإثارته ضد عم ريحـان أن نسـوق عم ريحـان بقربته الرشاشة إلى ما يقرب من الحائـط ليتصـل رشاش القربة ببضاعة عمنا الشرير.

لا يكـاد أبـو ريحـان يشـعر بمقلبنـا فالقليـل من النبق يذهله وينسـيه مـا قاسـاه أكـثر من مـرة من أهوال الرجل.

ويمضي أبـو ريحـان في تصـعيده، فنتكتـل خلفـه معرضين أثوابنا النظيفة ودفاترنا وكتبنـا لرشاشـه اللذيذ، وربما تدافعنا خلفه ووقع بعضها بين رجليه فتعثرتا واختل توازنها فيصرخ فينا مهدداً متوعـداً، ولكن قطعة من الجزر نضعها في فمه وهو يمضي منحنيـاً أمامنـا تحت القربـة كافيـة لأن تنبسـط أساريره وربما استغرق في الضحك.. وهو يقضمها بشره.

ويزيد ضحكه إغراقاً إذا "مسـكنا الزومـان" خلفـه على حركـة أيـدينا وهي تصـفق: "أبـو ريحـان.. يـا سـاقي العطشـان.. شـفتك في الـدرجان.. تغالـط رمضان".

أنا شخصياً أشهد أن الرجل لا يفطر رمضان رغم ما يعاني من ثقـل القربـة ومشـاوير الجبـل ولكنـه طيب إلى أبعد حـدود الطيبـة والتغفيـل، ولا يهمـه من أمر هذه الحياة إلاَّ أن يجمع الهللة فوق الهللة، وأن تسخو يد الصغار لـه بشـيء من "الفشـار"، أو "طبطـاب الجنـة"، أو حـتى "فوفلـة" يضـعها بين

فكيه في غير وقت الصيام؛ فتسـبيه وتسـري عنـه كل الهموم التي يعانيها من شقاوة الأطفال..

وكان لفـرط سـذاجته كثـير الإسـاءة إلى عملائـه وزبائنه.. إنه لا يقصد إساءة النـاس ولكن سـذاجته كثيراً ما تسوقه إلى أذى الناس كما شهدناه يــرش دقيق صاحب الدكان بدافع من شراهته لقطعة من الجزر لوحنا له بها.

وقـد يشـاغبه طفـل فيرميـه بعصـاه الـتي يتوكـأ عليها، فتصادف رأس الطفل أو أنفه فيمضي باكياً إلى أهله أو ترتطم عصاه بأحـد المـارة أو ببضـاعة أحد الباعة أو بمرآة معروضة في السـوق، فيركبـه الخطأ وتنهـال عليـه الشـتائم ثم تتصـل الشـكاوى بشيخ السقاة "بعلولة" فيطبق عليه القـوانين دون أن يثبت له شيء لفرط عيِّه وضعفه في الدفاع.

وكــان السـقاة في مكــة جلهم أو كلهم بالأصــح عبيـداً أو عتقـاء أو مولـودين من العبيـد والعتقـاء على غرار عم ريحـان، وقلمـا يوجـد بينهم من بـدو الحجاز الذين التحقوا بهم فيما بعـد ليحملـوا المـاء في صفائح.. كـان حمـل القربـة وقفـاً على هـؤلاء السود، فحملها لا يرقى لاحترافه البدو الطارئون.. يكفي أن يــبيحوهم العيش على هــامش البــازان، دون أن يربطوهم بقواعد السقاية وقوانينها.

ربمــا أخطــأ البــدوي على زبــون فحســب شــيخ البازان توبيخه أو منعـه من السـقيا، أمـا إذا أخطـأ الأسود من أمثال عم ريحان فعلى شيخ البازان أن يعامله معاملة الأصيل فلا يسـتبيح توبيخـه أو منعـه من الســقيا حــتى يحيــل قضــيته إلى الجمعيــة العمومية لتسـمع لـه أو عليـه ثم تقـرر مـا يفرضـه القانون.

وتتكــون الجمعيــة العموميــة من ســائر ســقاتنا

السود ولا يجوز لحامل صفائح "مهمـا بلـغ شـأنه"، أن يحضـرها فهـو ليس من فصـيلة العبيـد الأصـلاء في البازانات.

وتتكـون الجمعيـة عنـد اللـزوم بـدعوة من شـيخ البـــازان في حلقـــة على الـــتراب مســـتديرة على خطوات من البـازان، يتصـدرها شـيخ البـازان على يمينـه وشـماله أعضـاء الميمنـة والميسـرة حسـب أصالتهم وأقدميتهم في البـازان، ثم يـأتي بعـدهم بقية السقاة يحتلون مقاعدهم حسـب مـا يعرفـون من مراكـــزهم وربمـــا أبيح لبعضـــهم أن يأخـــذوا مقاعـدهم من بعض الحجـارة الـتي يصـادفونها إذا كانوا كبار السن أو المقام، ويتـورك البـاقون على بساط الله فوق التراب.

وتتوســـط الحلقـــة فـــروة مســـجاة يقـــف نقيب البازان بجوارها على العصا.. عصا القانون الخاصة بالتنفيذ، وعندئذ تفتح الجلسة.

يفتحها الرئيس: "هذا أخوكم أبو فرج الله، أو أبو سنكيت، أو أبو ريحان، أخطأ في حق الشيخ فلان.. أخر عليـه (المويـه) أو كسـر لـه الزيـر أو داس في بطن الغنمة أو أطـال لسـانه على الولـد الصـغير.. وقد وصلني الشيخ يطلب الحق.. ايش تشوفوا"؟

وهنـا يميـل أعضـاء اليمين ليتهامسـوا، وأعضـاء اليسـار ليتخـافتوا ثم يهيب أحـد الكبـار: "طيب يـا شيخ نسمع منه..".

وهم يقصـــــــدون أن يســـــــمعوا من المتهم لأن المدعي لا يلزم بالحضـور وحسـبه أنـه رفـع حجتـه إلى شيخ البازان وعلى المتهم أن يدفعها.

والغريب في أمر المـدعي أنهم يفرضـون صـدقه في أكـــثر الأوقـــات لأنـــه زبـــون وللزبـــون حرمتـــه وقيمتـــــه، ولأن قـــــانونهم لا يحب التهـــــاون في

ملاحقتهم ولــو للشــبهة أو الظنّــة مبالغــة في تــربيتهم على الأدب في معاملــة الزبــائن وغــير الزبائن من آحاد الناس.

بهذه الروح تستمع الجمعية إلى دفـاع المتهم فلا تقتنع إلاَّ بتأديبـه وعندئـذ يـدعى إلى الفـروة الـتي تتوسـط الحلقـة فيتوسَّـدها مبطوحـاً على وجهـه ويشرع النقيب عصاه ويبدأ الجلد.

وأي جلد هو؟؟ لقد كنت أتمنى إلى مشـايخنا في المدرسة أن يتعلموا تقليـده.. فليس ثمـة خيزرانـة لدنة تترك أثرهـا في الجلـد بين اللازوردي والأزرق كما كـان الحـال في مدارسـنا، بـل هي قطعـة من الغــاب أو مــا يشــبه الغــاب يــوازي ثخنهــا ثخن المواصير ذات البوصة؛ لو ضـرب بهـا الأطفـال من أمثالي يومها عشرة لما وازت لسعة واحدة مما كنا نذوقه من أيدي مشايخنا.

ولهم في الجلد أساليب رحيمة.. إن يد الضارب لا تنفصـل عن أبطـه وهـو إذا ضـرب ثلاثـاً في الإليـة اليمنى انتقل إلى الجانب الآخر ليضرب مثلهــا في الإليـة اليسـرى ولا يطـول الجلـد في الغـالب إلى أكثر، لهذا فقانونهم الصارم يبيح للمتفرجـة حـول الحلقة أن يقدموا إلى الحلقة أي عـود أخضـر ولـو من حـزم البرسـيم ليشـفع العـود الأخضـر للجـاني فيتوقف الجلد.

وكـان قـانونهم بقـدر مـا أراد أن يكـون صـارماً محتاطاً للشبهة أبى إلاَّ أن يمد للرحمة في أسلوب الجلد وتعطيله عند أي رمز يقدم للشفاعة.

وكان صاحبنا أبـو ريحـان وافـر الحـظ في حلقـة التأديب فلا يكاد يقضى يـوم أو اثنـان حـتى نسـمع أنـه مطلـوب "للبدايـة"، والبدايـة في عـرفهم هي الجمعيـة العموميـة الـتي تدينـه لأتفـه الشـكاوى،

ويعجــز لفــرط عيِّه وقســوة القــانون عن الــدفاع فيفترش الفروة وسط الحلقة مستعيناً باللــه على حكم الجلد، ولكنــه لا يكـاد يـذوق الجلـدة الأولى أو الثانية حتى تتهـافت أعـواد البرسـيم على الحلقـة من المتفرجـــة وأكـــثرهم يعطفـــون على بلاهتـــه ويعرفـون أن شـراهته لمـا في أيـدي الصـغار من حلـوى أو "نقـل" وحرصـه على ملاحقـة الكسـب الرخيص وإمساكه على (الهللة) بعد الأخـرى، كلهـا أشـياء تعرضـه بالإضـافة إلى بلاهتـه إلى الشـغب وعبث النــاس بــه حــتى يقــابحهم أو يتــورط رغم ضعفه في مضاربتهم.

ومضــت ســنوات طويلــة ابتعــدت أثناءهــا عن المدرسة ونسيت (أبا ريحـان)، حـتى كنت في أحـد الأيام أزور مستشفى أجياد فإذا جلبة عاليــة.. وإذا أنـاس يتجمعـون حـول سـيارة الإسـعاف عنـد بـاب المستشفى فوقفت أنظر فإذا أبو ريحـان منقـول على حمـال الإسـعاف في حالـة يبكي لهـا الفـؤاد، وإذا طائفة من كبار السقاة على رأسـهم شـيخهم (بعلولــة) يتبعونــه في أســى صــامت فوجــدتني أتابعهم بدافع من علاقة الطفولة حتى إذا اســتوى فوق أحد الأسرة فتح عينيـه في ضـعف فلمـا رآني بين الوقوف انفرجت شفتاه في ألم بالغ: "يا ولــد سيدي.. شوفي الله يخليكي ليش جابوني هنا.. أنـا ما سويت شي!!".

مسكين.. لقد اصـطلحت عليـه السـذاجة وهـذيان الألم فاختلطت عليه الأمور.

وملت إلى أحد "سناديله" أستفسره الأمـر فـراح يشرح لي ما أصابه: عاش أبــو ريحــان محرومــاً من لــذة العيش يجمــع الهللــة إلى الهللــة، ولا يســخو لنفسه بلقمة طيبة يشتهيها، فاستغل أحد الشطار

لؤمـه وراح يـدعوه إلى أطـايب الأكـل في بـراءة جـازت على سـذاجته حـتى إذا تمكن من قلبـه وسـيطر على عقلـه اسـتطاع بأسـلوبه الخلاب أن يستولي على ذخيرة أبي ريحان حصيلة العمـر على أن يحفظها له ويقـدم لـه من أرباحهـا مـا يشـتهي من لذائذ العيش فلما باتت في يـده لم يـبرح حـتى تنكر له ومنعه حتى رغيف العيش الحاف.

واحتدم أبو ريحان غيظاً وارتفعت عقيرته فألهب حمـاس الشـاطر وصـاح بـه: "روح.. مالـك عنـدي شي".

فكانت صـدمة نقلت أبـا ريحـان إلى المستشـفى ليواجه ذهول الموت.

أخطأ العفريت ولم أخطىء



* * *

هالتها آلام الرضـوض في رجلي، وسـاءها مـرور الأيام طويلة دون أن تبدر للشفاء بـادرة، أو يظهـر في رجلي ما يدل على تحسن حالها فقالت:

- يعني أنت ليش ما تستعقد؟؟

- في ايش أستعقد؟

- لازم تعرف أن الطبة ما تسـوي في رجلـك هـذا الحال كله!

- ولكنها سوت زي ما أنت شايفة.

- ما سوتها الطبة لوحدها!!

- أجل في شي تاني غير الطبة سواها معاها؟؟

- انت بنفسك فكر!

- وإذا كان فكـري مـا يصـلح.. ليش اللي زيـك مـا

ينفعني بفكره؟؟
- أنت ما تستعقد!
- يعـني رجعنـا (للاسـتعقاد) حقـك هـادا.. مـرة ثانية؟؟
- نعم أنت رحت الأشعة واتعـالجت عنـد الـدكتور، وجبت المجبر في البيت عشر مرات، تقدر تقوللي ايش قدروا كلهم هادول يسووا لك؟؟
- الصحيح ما قدروا.. ولكني إيش أسوي.. مـا دام يقولوا الوجع كباس!! والعافية نسناس؟؟
- لا يا سيدي تقدر تسـوي كـل شـيء.. لكنـك مـا تستعقد.
- يعني احنـا برضـنا في هـذا الاسـتعقاد اللي مـا أنت راضية تبينيه.
- أنــا أبينــه.. لكن أنت رجَّال تــتريق وتســويني مضحكة.
- لا.. في هادي المـرة منت مضـحكة.. بس بيـني لي الهرجة اللي يمشي عليها الجمل.
- وما تضحك علي؟؟
- إذا كان هرجك مضبوط.. ليش أضحك؟؟
- هه.. باين تبغا تضحك عليّ.
- أجل أنت عارفة هرجك مو مظبوط؟
- لا.. يمكن مظبوط.
- يمكن و.؟. بس؟؟ ســار أنت شـاكة في هرجـك بنفسك؟
- لا.. ماني شاكَّة.. هيا اسمع!! انت تــدري لمحت على مين؟؟
- أنا.؟. أنا طحت على مين؟
- أيوه.. أنت طحت على مين؟
- هـو دا سـؤال؟ طحت على مين؟.. أنـا يـا سـتي طحت على حجر!!

- هه.. هادي هي قلة الاستعقاد.

- طيب والاســــتعقاد ايش يقـــــول؟ يجيب لي الاســتعقاد شــيء من الخيــال.. ويقــول لي أنت طحت بالغصيبة عليه.

- لا.. مو كده.. أنت تقدر تقولي طحت على شـي ما شفته.

- يعني طحت على شي صـغير مـا ينشـاف؟ على كده هذا الصغير ما يعورني.. أنا الحجر اللي شـفته هو اللي صحيح يعور.

- برضك مانت راضي تستعقد.

- يا ستي والله أستعقد.. بس هاتي فهميني شي أستعقده.

- يعني أنت ما تعرف أن الأرض فيها عمار؟

- يعني من الجن؟؟

- أيوه.. من الجن.

- طيب وأنا ايش لي.. وايش لهم؟

- برضك رجعت؟؟ ما تستعقد.

- يعـني اسـتعقد مـتى؟؟ بعـد أفهم.. وإلا قبـل أفهم؟؟ أنت مـا دام مسـتعقدة فهميـني تكسـبي ثوابي.

- قلت لك الأرض فيها عمار.

- فهمت أنه فيها عمـار.. العمـار ايش لهم وايش لي.. أنا راجل طحت على الحجر.. انفركت رجلي.. اترضـت.. انفكت.. يعـني غرضـك يمكن أن الحجـر جني؟؟

- أيوه.. يمكن.

- طيب وكيــف أفهم أن الحجــر جــني.. ايش الدليل.. وإلا بس الواحد يستعقد من غير دليل.

- إلاّ في دليل.. الدليل أن الأرض مليانة بالجن.

- يعني يمكن هذا الحجر جني؟

- مو بعيد.

- طيب وهادي الحجارة كلها اللي الناس طايحين فيهـا تكسـير بـالفواقيش والعتـل.. كلهـا هـادي الحجارة جن؟؟ والا بس هادا الحجر لوحده جني؟؟

- مو بعيد يكون هذا لوحده جني.

- طيب هذا الحجر لوحـده جـني فهمنـا.. إيش لـو هدا الجني عندي؟

- أنت لا بدك عورته!

- كيف عورته؟

- طحت عليه!!

- يعـني مقصـودك جيت لقيت حجـر قاعـد في الأرض.. قمت رميت نفسي عليه علشان أعـوره؟؟ هـادي هي هرجتـك اللي تبغيـني اسـتعقد فيهـا؟ طيب أنـا أخطيت عليـك يـا حجـر.. لكن الحجـر في قياسك.. ما أخطى علي؟

- إيش هو خطا الحجر؟؟

- ليش ما صاح في وقاللي ترى يا شيخ انتبه.. أنا جني!! روح عني بعيد؟

- تبغي الحجر يصيح؟

- إذا ما صاح سار هـو المخطىء.. أول حاجـة هـو شـافني أطيح.. والنـاس مـا تطيح إلاّ غصـباً عنهـا فكان لازم يشرد من طيحتي.. الشـيء التـاني لمـا شـافني قـريب الطيحـة ليش مـا صـاح في وشـي وقال: روح عني بعيد.. ترى أنـا جـنى، وأقـل شـي يعورني.

- هادا الهرج يا شيخ.. الناس ما تقوله!!

- أبـداً.. النـاس مـا يعجبهم إلاّ الهـرج اللي يكـون باين فيه محل الخطأ والصواب.. أمـا إن كـان الجن أحكامهم غير كده.. فهادا يسير خطأهم مو خطايـا أنا.. أنت لما تكوني قاعدة محل الجـني وشـفتيني

طحت فوقك غصباً عني.. ايش رأيك؟ ما تعذريني؟؟ إن ما عذرتيني.. تسيري ما نت عاقلة.

- لا.. أعذرك!!

- طيب ليش الجني ما يعذرني؟.. وخصوصاً وهو يدري أني ماني شايف غير حجر.

- لا بده ما يعذر.

- أجل أنت أخطيتي عليه دحين أكتر مني.

- ليه؟؟!

- لأنك سويتيه ظالم، واعتبرتيه ما يعرف اللي لو.. واللي عليه.. فإن كان هو تمام.. يزعل منك من صحيح.. ويمسك رجلك بدال رجلي.. لأني رجال ما اعتديت عليه.. أما أنت كلامك كله تعدي عليه.

- وي.. هيا جينا لهرج المجانين!!

وما أتمت كلمتها حتى كان صوت غلاية الشاي فوق الموقد يناديها فأولتني ظهرها مسرعة، وهي تحوقل من غرابة أطواري وقلة اعتقادي.

وتركتني بعد هذا أضيف إلى جنوني مرتبة جديدة في الجنون تصور لي هذا الحصى الذي أطأه، والأحجار التي أدوسها، وقطع الأخشاب التي ربما تكسرت تحت قدمي وأنا لا أعلم من أمرها شيئاً.. كل هذه أتصورها أخيراً عالماً من الجان تأخذ علينا السبل، وتعاقبنا أشد العقوبة وأقساها إذا وطئناها!!.

سأضرب ابتداء من يومي عن المشي حتى لا تصطدم رجلي بعد الآن بأحد عمار الأرض وسأقنع بالبقاء في بيتي لا أريم خطوة، فهل يوافقني مجنون يناصر مذهبي ويدعو معي إلى هذا الاعتكاف؟؟

وهل يرضى العقلاء أن يحذفوا هذه السيدة من

بنودهم ليضيفوهم إلى المجانين، وينقلوني لأحتل المركـــز الـــذي كـــانت تحتلـــه بينهم في صـــفوف العقلاء؟؟

أيرضيهم هذا؟ أم يظلون على تعصبهم لا يقبلون الهـوادة فيمـا صـنفوا ولا تزجـرهم الـبراهين عمـا اعتقدوا؟

إذا صح هذا فبارك اللهم علي نعمة الجنون!

بعد أن طاب السفرجل



* * *

خديجة الفقهية من عـائلات مكـة العريقـة قـرأت المصحف على أبيها الشيخ وجوَّدت آياتـه، وحفظت جملة صـالحة من كتب الحـديث، وتمرَّسـت في فن الخط والحساب إلى حد كـان لا يتيحـه عهـدها يـوم كان من عيوب الفتاة أن تتعلم كيف تكتب.

وأصابها الزمان في أبيهـا ثم في زوجهـا دون أن تخلف منه ولداً يعولها فرأت أن تتخذ لها كتّاباً تعلم فيه البنات لتكسب عيشها وما يقيم أودها.

كـان كتّابهـا يقـع في زقـاق يتفـرع من المـدعى يسمونه زقاق الشـيش، وكنت لا تمـر بالزقـاق في أي سـاعة من سـاعات النهـار حـتى تصـافح أذنيـك أصـوات البنـات يقـرأن في ضـجة عاليـة.. وربمـا سـمعت بعض المـارة من أتـراب أبيهـا كبـار السـن يتلمظون حياتهـا في عهـد أبيهـا: "واللـه وعـرفت تخلف مين يا شـيخ سـليمان.. اللـه يقويـك يـا بنت الشيخ.. يا خدوج!!

وكتّاب خديجـة الفقهيـة أو -خـدوج- كمـا يـتراءى لأتراب أبيها أن يدللوها، لا يزيـد عن غرفـة واحـدة متَّسعة الأطـراف قسـمت البنـات بين أركانهـا إلى ثلاثة فصول.. فصل يتهجى الأليف لاشيون عليها.. وفصل يفك الحرف في قصار السور من جزء عم.. وفصل بالغ الغاية تتربع كل بنت فيه أمـام كرسـي مـزدوج يحمـل مصحفها تقـرأ فيـه طـوال السـور وتتابع ما تقرأ بأصـبعها أو ريشـة تتخـذها من ريش الحمام تشير بها إلى حروف الكلمات وهي تقرأهـا -(فين الغنـة يـا بنت.. افتحي فمـك بالمـد.. يعـني منت شـايفه السـكون بعـد المـد يبغى لـه سـت حركات).

ولا يقبـل كتّـاب خديجـة أو خـدوج أطفـالاً من الـذكور -هـادا يـا سـتي كتّـاب مخصـوص للبنـات..

والعـذر للـه ولـك.. شـوفي هنـاك كتّـاب الشـيخ الصـنعاني في دحـديرة القـرارة ليش مـا توديـه؟.. كتّاب عليه فتوح ألف ما شاء الله..

ومـع هـذا فقـد وجـد بعض الـذكور طـريقهم إلى الكتّاب في عدد لا يتجـاوز الثلاثـة أو الأربعـة، كـان سن أكبرهم حسان لا يتخطى العاشرة إلاَّ بشـهور، رأت الفقيهـــة أن لا منـــاص من قبـــولهم لأنهم جيرانهـا "والـواد الكبـير حسـان ربنـا ممسـد على وشه.. ولد هادي ما عنده شيطنه..".

كانت تقنع نفسها وتقنع أمهات الطالبـات بمثـل هـذا وهي تخفي في قرارتهـا شـطارة حسـان في قضـــاء أكـــثر حاجاتهـــا الصـــغيرة من الســـوق، واستفادتها من أبيه البائع البليلة عند بـاب الكتّـاب "من فضـلك روح يـا عم قاسـم دخيلـك قضـي لنـا وصلة لحمة شوية ملوخية بس جيبهـا من العـثري.. وزل من فضلك على أبو سـعدية خـذ منـه العـادة.. ربنا ما تقطع له عادة إن شاء الله"..

وأبو سعدية من مشاهير الصاغة في زقاق الحجر أمام باب النبي.. كـان كبـيراً في عملـه، كبـيراً في ثروته، كبيراً في شهامته وبذله، كبـيراً في عطفـه على ضعفاء الناس كما كان كبيراً في حارته: "عنـد الله وعندك يا أبو سعدية.. إحنا ما نسينا إنك، شلت الزينة على رأسك.. فتحت كيسـك وبيتـك.. الحـارة مـا تنسـى لـك جميلـك.. إحنـا تـرى عنـدنا خرجـه عـازمين أهـل النقـا في الشـهداء.. إحنـا بس نبغـا الطلبان منك والباقي على الله.. عندنا أبـو صـادق والشـريم والبـالع برضـهم أهـل فزعـه مـا هم متأخرين بس أنت سيد الكل.. راس القايمة".

- "يا مرحبـا.. حيـا اللـه نبـاكم.. بس ألحـق صـلاة العصـر مـع الجماعـة وأرسـلوا لي النقيب.. واللي

تقولوه علي ماشي"..

***

أجل ماشي.. فقد تعودت نفسه السـخاء وأدركت فقيهتنـا ميزتـه في البـذل فأخـذت تعـنى بسـعدية ابنته عنايـة فائقـة واسـتطاعت أن تسـتدر عطفـه على الكتّاب.

- الــبزوره يكســروا ألــواحهم يــا أبــو ســعدية ويقطعوا الأختام.. أكثرهم فقرا ما عندهم يشتروا بـدالها.. كمـان -المضـر- زي مـانت شـايف عمـال يخلص قبل الدور.. فزعتك يا أبـو سـعدية إلهي مـا يحرمنا منك!!

- طيب أرسـلي لي عم قاسـم كـل دور.. وربنـا يقدرنا على الطيب! وكان الطيب ريالين (مجيدي)، أصبحت عادة ينفحها أبو سعدية للكتّاب كل أسبوع.

وأدرك العم قاسـم مـا يتمتـع بـه أبـو سـعدية من أريحيــة فكــان إذا بــارت بليلتــه في نهايــة بعض الأمسيات كلف حسان ولـده أن يحملهـا إلى دكـان أبي سعدية: "يسلم عليك أبويـا ويقـول لـك شـوف اليوم البليلـة زي المخ خلالـك منهـا شـوية علشـان سعدية وأخوانها".

- طيب وديها البيت يا حسـان.. وهـادا ريـال حـق البليلة وهادا ربع ريال لك.. واد يـا حسـان لـو بـدك تشتهي البليلة كل مـع سـعدية يـا ولـدي.. وشـوف عندهم سفرجل خليهم يعطوك كم حبة وديها لأمك في البيت تسويها مربه. ويفترش حسـان وسـعدية أرض الخارجه فوق مفرش صـغير أمـام صـحن من البليلة وآخر من السفرجل!! وتشعر سعدية بــدافع لا تفهمــه أن عليهــا أن تكــرم حســان في بيتهــا. فتقـدم لـه قطـع السـفرجل المقشـور فيتقبلهـا ممتناً ولا يعرف لحداثـة سـنه كيـف يقابـل جميلهـا

فتختلـط المعـاني في نفسـه، وتضـطرب ويشـعر بنأمة خفيفة تنبض في صـدره لا يتـبين لهـا معـنى ويحس أن عليه أن يفعل شـيئاً من أجلهـا فتسـبقه نفسه إلى جبينها يطبع عليه قبلة خفيفة!! أودعها امتنانه كما كان يشهد أمه تطبع على جبين سـعدية نفسها مثل هذه القبلة كلّما حملت إليها هديــة من أمها أو تفصيلة جديدة للعيد تبر بها جارتها.

ودخلت أم سعدية فجـأة على حسـان وهـو يطبـع قبلته البريئة على جبين ابنتها ورأت ابنتهـا تضـحك لبادرتـه الحلـوة فطـاش الـدم في صـفحة وجههـا، وانهالت تضربه بمروحـة الكـوانين في يـدها: "كـدا ياللي ما تسـتحي.. يقولـوا عليـك ولـد هـادي وانت تعرف هادي المسخرة.. امش من هنا لا عاد أشوف وشك في هذا البيت أكسر رجلك..."، "وانت يـا بنت سعدية كيـف تخليـه يسـلم عليـك ولـد زي هـادا مـا يعرف العيب.. اصحي تاني مرة أشوفك تهرجيه".

لم يفهم حسان معنى لهذا الزعل المفاجىء ولم يفهم معنى لطرده من الـبيت ومـا نالـه من ضـرب المروحة. عهده بـأم سـعدية تحـدب عليـه وتعطـف على أمــه كجــارة وفيــة ودودة، فلم يملــك إلاَّ أن يسـلم سـاقيه للـريح حـتى إذا انتهى إلى الشـارع ساقته قدمـه إلى عتبـة بـاب الكتّـاب، فـركن إليهـا وراح في ذهـول يسـتعرض في عقلـه الصـغير كـل الأسباب التي تحتمل ثورة أم سعدية عليـه وطـرده بهذه الصورة المهينـة، فلم يسـعفه خيالـه الـبريء بأي معنى يفسر ما حدث.

وفجعت سعدية بدورها لمـا حـدث، فلم تملـك إلاَّ أن تبكي بــدموع مــدرارة.. ونهرتهــا أمهــا فمــالت بجســـدها على الأرض وأخـــذت تـــرفس برجليهـــا وتشهق ببكائها في طفولة مجنونة.

وأمسى الليل عليها فأخذت سبيلها إلى مضجعها في -الخارجة- تحاول النـوم ولكن النـوم أبى لأول مرة في حياتها إلاَّ أن يستعصي عليها.

تبلبلت أفكارهـا وذهبت بهـا آلاف المـذاهب.. لم يخرج حسان مضروباً مطروداً بلا ذنب؟ حـاولت في حـدود مـا يتيحـه سـنها أن تفهم سـبباً لمـا حـدث فطافت بذهنها آلاف الظنون إلاَّ قصة القبلـة على جبينها فقـد تعـودت مثلهـا من أمهـا وأبيهـا وأكـثر أقربائها.. تعودتهـا على جبينهـا ووجنتيهـا وثغرهـا من معارفها وجيرانها رجالاً ونساء كما تعودتها من فقيهتها في الكتّاب!!

طـافت بـذهنها آلاف الظنـون إلاَّ قصـة القبلـة فالتبس عليها الأمـر واختلـط، وجفاهـا النـوم فلم يغمض لها جفن إلاَّ بعد أن أسفر الصباح.

عندما شعرت بثقـل أجفانهـا ورأت نفسـها فيمـا يـرى الغـافي تجـري إلى بيت حسـان لتسترضـيه فيهولها نحيبه وقـد ملأ الـبيت وتنـادي بأمـه لتفتح لها باب البيت وقد وجدته مغلقاً في وجهها فيطـل وجه الأم من نافذتها ثم يشيح عنها في ازدراء!!

هبت من نومها مـذعورة فـآلت على نفسـها في سـرها أن تسـتعجل خروجهـا إلى الكتّـاب لتقابـل حسان وتسترضيه فيما حـدث من أمهـا ولكنهـا مـا كـادت تخطـو حـتى سـمعت أمهـا: "يـا أبـو سـعدية بلاشى على البنت كتّاب علشان خـاطر هـادا الـواد حسان.. وترى لا عاد يجيني البيت بعـد كـده.. تـرى أكسر رجله ناقص علينا ولد هايف زي دا. قال إيه.. قال: أبوه بياع بليلة.. قـرف!! وحـاول أبـو سـعدية أن يفهم الفكـرة فـأبت إلاَّ أن تعمي عليـه: "بس كدى هادي بنت وأمها أدرى بها.. انت مالك شـغل.. البنت تنطق في البيت.. وانت خليك في شغلك".

لم يرق لأبي سعدية أن يتوسع إلى أكثر من هــذا فقد عاش بخلقه الرضي يتحاشـى مواجهـة الحيـاة من جوانبها المظلمـة! "سـيبك يـا سـيدي.. مـا دام أمها تبغا إلاَّ كدا اشلي واشل".

و (انْطَقَّت) البنت في البيت لا تـريم عنـه إلاَّ لمـا ليس منه بد. ولكن المسكينة عاشـت وفي نفسـها حزازة لهذا -الغلبان- الذي شهدت هونـه في بيتهـا وعجزت عن إنصافه واسترضائه.

كانت تختلس بعض حبات الرمـان أو الخـوخ كلمـا دخل بيتها وتدسه في يد أختها الصغيرة، اجـري يـا صالح أعط هادا لحسـان في بسـطة البليلـة.. تـرى اصحي أمك تشوفك بعدين أبسك!!

كـانت تعتقـد أنهـا ترضـي ربهـا لقـاء مـا حـدث - للغلبـان- في بيتهـا لا أكـثر.. وكـان حسـان يتقبـل هديتها في صمت دون أن يعلق عليها بحـرف فقـد ألف عطف أبيها قبلها فما خالجـه قـط أن هـديتها تتسع لأوسع ما يفهم في حدود هذا المعنى.

وربما عنَّ له في بعض الحالات أن يقابل هــديتها بشـيء من البليلـة يضـعه في جيب "غثفـة" أختهـا الصغيرة ويوصيها أن تأكلها مع سعدية.

وجاءته مرة بحبات من المشمش وكانت في يــده سفرجلة فدسها في غتفتها لتحملهـا إلى سـعدية، فمــا كــادت ســعدية تلمســها حــتى ذكــرت يــوم السفرجل المقشـور ومـا أعقبـه من إهانـة وطـرد فسالت دمعتها وارتابت في الأمـر ربمـا أرادهـا أن تتذكر في السفرجلة سيئات ما ناله في بيتهــا ولم يدر بخلدها أنها لم تكن إلاَّ صدفة.. مجـرد صـدفة لا أكثر.

*** * ***

ومضت سنوات نسيت فيها سعدية أمر حسان إلاَّ

في فترات متفاوتة يدخل فيها السفرجل بيتهـا أو تمر فيها بباب الكتّاب حيث كانت تلعب مـع حسـان أو تشتري صحن البليلة من أبيه.

ولكن أين أبـوه بعـد هـذه السـنوات؟.. لقـد كـان يبسـط بضـاعته من البليلـة في ظـل هـذا الـركن.. وأين حسـان نفسـه.. لم لا تـرى لـه أثـراً في هـذه الأزقة المتعارضة وكانت مرتع طفولته؟

وعنَّ لها في أحد الأيـام أن تسـتدرج لسـان العم بادريق العجوز، وكـانت في طفولتهـا تشـتري منـه الزرنبـاك والحلاوة الموزيـة، فنفض إليهـا العجـوز خلاصة ما يعـرف: (إيـه يـا بنـتي أبـو حسـان يعيش رأسك من سـنين.. أمـا حسـان فسـعده سـعد. هـو اليـــوم في المدرســـة الرشـــيدية مـــع الأفنديـــة الذوات)!!

*** * ***

لقد مات والد حسان وماتت والدتـه فتبنـاه رجـل من الأشراف يشتغل في قصـر إمـارة مكـة مركـزاً محترمــاً.. وألحقــه الشــريف بالمدرســة الرشــدية وكان قد أسسـها رجـال الدسـتور في ذلـك العهـد، فظهرت عليه مخايـل النجابـة واسـتطاع أن يحقـق نجاحاً هيأه لعمل وظيفي ممتاز في دائرة حكومية.

وشــعر بحاجتــه إلى أن يكمــل نصــف دينــه وأن يستقل ببيت خاص فعرض عليه متبنّيـه بعض بنـات العائلات وكادت الموافقة أن تتم لولا أن ثمــة بيتــاً كان صاحبه يعطف عليه في صغره وثمة فتاة كــان عزيزاً عليها.. كانت تقشر له السـفرجل!! وتنفحـه هـداياها من الرمـان والخـوخ في أسـلوب صـبياني لذيذ رغم ما ناله من شراسة أمهـا، فمـا يمنعـه أن يبني على فتاة كان يلمس عطفها وحنوها ويصاهر رجلاً نادر المثال في أريحيته وأخلاقه.

أفضى بالأمر إلى متبنّيه الشريف فاستصوب الرأي ومضى من يومه إلى أبي سعدية في دكانه فوجد عنده ما أرضاه -"متى ما شاء الله سار في هادي الوظيفة؟ الله يأخذ بيده كمان وكمان.. هادا ولد مؤدب وكان أبوه الله يرحمه من الناس الطيبين.. أنا يا أخويا كبرت وما عندي أولاد.. يا مرحبا به خليه يسير كبير البيت.. أموت وأنا مطمئن.. دخيلك خليه يزل علي في البيت مشتهي أشوفه".

وحمل الشريف إلى حسان أمر الرضا ورغب إليه أن يزور الرجل في بيته فأسرع إلى ذلك من يومه تسوقه ذكريات مشبوبة وشوق طافح ولكنه ما كاد يطرق الباب حتى سمع صوتاً لم ينكره رغم تقدم السنين.. صوت والدة سعدية تهيب به: ما فيش هنا أحد.. إن كان تبغا سيد البيت رح له في الدكان.

استغرب حسان ما رأى وسمع وأدرك أن يطرد مرة ثانية من هذا البيت فهاله الأمر وحز في نفسه بشكل لا يطاق.

ولم يعجزه أن يعلل الأمر فهو يعلم أن سيدة البيت أساءت فهم طفولته يوم السفرجل واحتقرت صلته بفتاتها وهو ابن بائع بليلة.. وهي اليوم لا تدري شيئاً عن مكانته كشاب مرموق.. كما يعلم أن زوجها الطيب رغم أنه يفهم مثل هذه الأمور على غير هذا النحو الأهوج، ولكنه لا يملك في الوقت نفسه أن يؤثر على أفكارها في الحياة أو يقودها إلى ما يعتقد صلاحه.

كتم كل هذا في نفسه دون أن يبدي منه شيئاً لمتبنّيه الشريف وأكّد عزمه على أن يستجر آلامه وحده وأن يلغي فكرة الزواج من ذهنه ما عاش.

* * *

ولم تمض أيــام حــتى انطلقت الرصاصــة الأولى من قصـــر الحســـين في مكـــة تعلن ثورتـــه على العثمانيين، فانضم إليها حسان في فتيـة من كبـار المـوظفين زملائـه يخـدمون القضـية تحت غمـرة الحسين، وبدأت وفود الهيئـات العربيـة من الشـام والعراق، ومندوبو الجمعيات العربيـة المغتربـة في إنكلترا وفرنسا وسويسـرا تنثـال على مكـة لتقـدم تأييدها للحسـين، فنـدب حسـان ليتـولى الإشـراف على استقبال كبار الضيوف ومناقشـتهم في بعض المهـام الـتي نـدبوا لهـا وتقـديمهم إلى الحسـين حسب درجاتهم وأهمية استعدادهم لخدمة القضـية العربية.

ومضت شهور صدرت أوامر الحسـين على إثرهـا بتجنيـــد المتطـــوعين من حـــارات مكـــة -الفزيعـــة- واستنفار القبائل الموالية في الحجـاز للعمـل في جيش الشمال الزاحف إلى سورية تحت إمـرة أحـد أبناء الحسين، فانضم حسـان إلى الفرقـة العاملـة في دائرة أموال الجيش.

وبات الجيش في طريقه إلى الشام يتلقى إعانة الحلفـــاء الماليـــة صـــناديق من جنيهـــات الـــذهب الإنكلـيزي فغمـرت الأمـوال أفـراد الجيش وجميـع العاملين في إدارته بشكل فياض واسع.

وعنـدما عسـكر الجيش في العقبـة وطـال مكثـه اتسعت أسـواق الحاجيـات حـول ميدانـه وتفـاقمت أسعارها، فبيعت وقيَّة الملح بما لا يقـل عن قيمـة الريال وبيع رطل السكر بما يوازي جنيهاً إنكليزيـاً، وبيعت علبة الدخان بأكثر من ريالين دون أن يتذمر المســتهلكون لــوفرة المــال في أيــديهم وكــثرة الذهب في جيوبهم.

وتــاقت نفس حســان للعمــل في التجــارة إلى جانب عمله الـوظيفي ورأى في حوزتـه من المـال ما يتّسع لأوسع الأعمال فيها، فاستأذن قيادته في الأمــر فلم تعــارض القيــادة لحاجــة الميــدان إلى اتِّساع رقعـة السـوق، فأرسـل إلى مكـة من يختـار لدكانــه الواســع آلاف الأصــناف، واختــار لإدارتــه صديقاً وفياً؛ فانثالت الأربـاح عليـه بصـورة كـان لا يحلم بها.

كــان يقضــي ســحابة يومــه في إدارة أعمالــه الوظيفيــة فــإذا أظلــه المســاء هــرع إلى الــدكان ليشرف على أعمال البيع ويقفـل حسـابه اليـومي ويحصـي أرباحـه الـتي ظلت تتطـور كلمـا تطـورت الأيام.

وإنه لفي دكانه ذات ليلة وإذا رسول أمير الجيش يــدعوه ليلــبي طلب الأمــير في أمــر مســتعجل، فأسرع من فوره إلى خيمة الأمـير، فـإذا رجـل من مكـة بين يـدي الأمـير.. ومـا أن سـلَّم حـتى بـادره الأمير:

- تعرف هذا؟

- أجل كنت أعرفه وأنا صـغير السـن أبيـع البليلـة بجوار أبي وكنت أشهده أحيانـاً يـزور بيتـاً معروفـاً هناك.

وهنا ابتدره الرجـل: "العلم لـك خـير يـا حسـان.. إنت سيبت هناك في مكة قلب: تقطع علشانك.. لا تقـل لي أيت قلب.. أنت لا بـدك مـا نسـيت واحـدة اسمها سعدية كنت معاها وأنت صغير.

- لا والله ما نسيت لكن ما أعـرف قلب مين اللي يتقطع.

- شوف يا ولدي.. وجه اللـه مـا عليـه غطـا.. أنت خطبت هادي البنت وأبوها رضى.. وقفت أمهـا زي

لقمة الخانوق في الحلق.. سار اللي سار البنت سمعت حكاية الخطبة ما قدرت تقول ولا كلمة، طاحت وجعانة في محلها.. تعبنا حكما.. تعبنا طببا ما فيش فائدة.. قول الأم أخذ الله بوداعتها وماتت، البنت جاها عشرين خطيب ما فيش فائدة.. مين يتزوج؟.. تتزوج واحدة على الفراش!! ما أكثر عليك أنا خال البنت جافى بال الأبو يمكن البنت مقهورة من يوم ردوا خطبتك.. عرفني أبوها على الحكاية قلت ولا شيء عندي.. أنا أروح أجس لك النبض.. دخلت لك على سعدية.. يا سعدية هادا حسان الأولاني جاء يخطبك وأبوك رضى ايش تشوفي.. أنا قلت هادي الكلمة ولا شفت لك إلاَّ البنت فتحت عيونها وصحصحت وسمعتو سمعتها تقول بنفس مفتوحة اللي تشوفوه يا خالي.

بس أنا مو حمار.. فهمت الهرجة من طقطق لسلام عليكم، ورحت أجري لأبوها قال لي خلاص شوف حسان أنا سألت عنه قالوا في العقبة مع الجيش وقالوا لي الرجل مضرب عن الزواج من يوم ما صكوا الباب في وجهه.. ايش تشوف؟ قلت له ولا أشوف ولا شيء أنا أقدر علشان خاطر الضعيفة هادي أمد رجلي للعقبة إن كان لقيته مشترينا برضه الله يحيي نباه.. إن كان.. لا.. جيتك على تياري. وربنا يلطف بالبنت ولا يأخذ عمرها وتستريح.

واديك تشوفني دحين مسكوني للأمير وأنا داخل العقبة حسبوني جاسوس نصيت عليه الهرجه بزي ما هيا.

والتفت الأمير في هذه اللحظة إلى حسان يستوضحه الأمر، أصحيح ما يدعيه الرجل أم هو

تلفيق جاسوس؟!

وقبل أن يتفوه حسان كانت الدمعة قد سبقت إلى عينيه واختلطت قطراتها بشفتيه وهو يتفوّه: "أيها الأمير: كل ما قال صحيح.. وإذا أذنتم لي بنجدتها فإن نفسي وما أملك فداء لها.. وقد طاب اليوم السفرجل"!!

وأطرق الأمير ملياً ثم رفع رأسه ليقول: إنك صفي عندنا. ومن النادر أن نجد من يعدِلك أمانة وكفاءة وإخلاصاً.. ولكننا سنسخو بك في سبيل روح غالية.. أرى أن تبادر إلى مكة من ليلتك وسنختار من يشرف على عملك في الوظيفة ويتولى شؤونك في -الدكان.. اجمع من أموالك ما شئت واترك ما شئت لمن يخلفك على شؤونه.. هيا وأسرع إلى مأمور النقل عن أمري ليجهزك وزميلك بما يكفيك من ركائب الجيش السريعة وما يلزمك للمؤونة والعتاد.. وأرى أن لا تبيت إلاَّ على طريق مكة.

*** * ***

وأنجب السعيدان على أثر هذا فتى عاش بعدهما واسع الثراء بعيد الآمال، ظل يدير عملاً ناجحاً في جدة ثم انتقل بأعماله كما قيل إلى جنوب إفريقيا، ولعله يعيش اليوم فيها إن لم تكن تجارته قد دفعته إلى ميادين أوسع.